القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • سبتمبر - أكتوبر 2006

ملف العدد

ناطحة السحاب.. تراث العصر



رحلة الى آثار المستقبل



المرأة في سوق العمل...أكثر من إضافة



تضافر الطاقات... لبيئة نظيفة



العدد 5
المجلد 55

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم.
والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

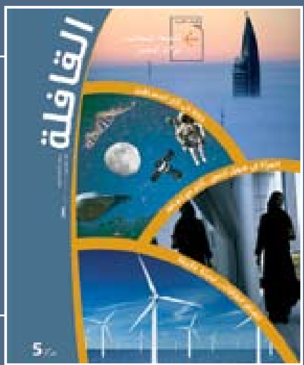
للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتابها.

صورة الغلاف



في خطوة جديدة وخاصة بهذا العدد تجمع القافلة على غلافها أربع صور مختلفة تمثِّل أربعة مواضيع رئيسة يتناولها هذا العدد.

القافلة

محطات العدد

سبتمبر - أكتوبر 2006
شعبان - رمضان 1427

توزع مجاناً للمشتركين

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

رسالة المحرر

1 قضايا

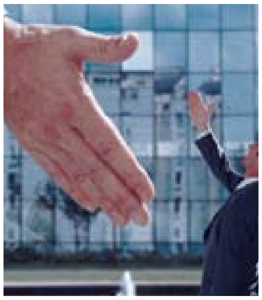
مع تزايد الاهتمام بالدور الذي يمكن أن تلعبه المرأة في العالم على صعيد نمو الاقتصادات الوطنية، تستهل القافلة رحلتها في هذا العدد بتناول هذا الموضوع على صعيدين: على الصعيد العالمي حيث يبدو أن علاقة المرأة بسوق العمل لاتزال تثير قضايا فرعية خاصة بها رغم كل ما حصل من تطور، وعلى الصعيد المحلي، حيث أصبحت المرأة السعودية ذات حضور حقيقي وملموس في سوق العمل، وإن كان هذا الحضور لا يزال حتى اليوم ذا أثر اقتصادي عام أقل من المرتجى.



وفي باب «قول في مقال» عرض للتحول الذي طرأ على المفكرين العرب، من خلال مقارنة الجيل الحالي المسمى اصطلاحاً بـ «الجيل الوسط» بالمفكرين الكبار من الجيل السابق.

2 طاقة واقتصاد

ومواكبة للمؤتمر الدولي الأول لآلية التنمية النظيفة الذي تستضيفه الرياض خلال شهر سبتمبر، يتناول مناخ الطاقة والاقتصاد التحول العالمي الذي طرأ على التطلع إلى مصادر الطاقة النظيفة التي لم تعد منافساً لمصادر الطاقة التقليدية.. بل مجالاً استثمارياً إضافياً.



وبعد ما كانت القافلة قد تطرقت في عدد سابق إلى كيفية البدء بمشروع عمل حر، تتطرق في هذا العدد إلى الدور المتعاظم الذي تلعبه المشروعات الصغيرة على الصعيد الاقتصادي بشكل عام.

3 علوم وبيئة



وفي مناخ العلوم بحث حول فرق العمل في عالم الحيوان، والتعاون الضروري للبقاء ما بين أعضاء النوع الواحد أو ما بين نوع وآخر. ولأنه من الممكن إسقاط مفهوم «فريق العمل» على الإنسان، ألحقنا البحث المذكور بعرض لكتاب فيه توضيح مهم عن أوجه الاختلاف ما بين جماعة العمل وفريق العمل.



الفاصل المصور

أما الفاصل المصور فيخصص صفحاته في هذا العدد للمصور راشد السعدي، موهبة سعودية ناضجة كما تدل على ذلك العينة المنشورة من أعماله، والمستوحاة بشكل عام من الطبيعة، حيث يحضر أيضاً في بعض الأحيان أثر الإنسان.



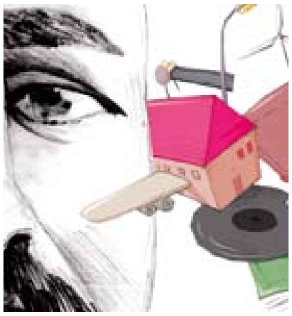
4 الحياة اليومية

ويتناول مناخ الحياة اليومية موضوعاً يبدو للوهلة الأولى موجهاً إلى الرياضيين، ولكنه في الواقع غير ذلك. إنه قضية علمية وأخلاقية ورياضية في آن واحد وتتعلق بهذا الهوس العالمي بتحطيم الأرقام القياسية.. رغم أن العلم يقول إننا اقتربنا كثيراً من هذا «التحطيم».



5 الثقافة والأدب

ويأخذنا المناخ الثقافي في رحلة مع الخيال العلمي.. هذا النوع من الأدب الذي يعتقد الكثيرون أننا نحن العرب بعيدون عنه. ومن المرجح أن القارئ سيفاجأ ببعض صفحاته، وسيكتشف أن رائداً عربياً في فن الرواية التاريخية كان أيضاً من أصحاب الخيال العلمي المجنَّح.





أما الصفحات التي اعتادت القافلة أن تخصصها لعرض للرواية العربية أو العالمية، فكان من الطبيعي أن تتوقف أمام رحيل عملاق الرواية العربية الأديب نجيب محفوظ. وفي مايشبه التحية الوداعية، أكثر من استعادة صفحات ماضية، يروي لنا الناقد جهاد فاضل صفحات، معظمها مجهول، من سيرة أديبنا الكبير الراحل.

6 ملف العدد

وفي الختام، يأخذنا فريق القافلة في رحلة إلى فوق... إلى ناطحات السحاب، التي صارت سمة المدينة الحديثة، ويجول بنا على كل التحديات التي يفرضها نطح السحاب من هندسية وعلمية وبيئية إضافة إلى دلالاتها الاجتماعية والثقافية.



المحرر

الرحلة معاً

فضائل عملاقين

فقدت الجغرافيا العربية هذا العام اثنين من أبنائها الكبار، أو قل اثنين من أهم وأعظم مفكريها وكتَّابها. رحل نقولا زيادة في ليلة ساخنة من ليالي حرب بيروت الأخيرة، ورحل نجيب محفوظ محفوفاً بعاطفة المصريين الشعبية في مستشفى الشرطة في القاهرة. اشترك الاثنان بطول العمر (زيادة 99 عاماً ومحفوظ 94 عاماً) وبقائمة طويلة من الكتب والمقالات وسيل، كما يروي حرافيشهما، من التعليقات والطرف التي تغرف من مخزون الزمان والمكان.

قُدِّر لزيادة، المسيحي والحاصل على الدكتوراة في التاريخ الإسلامي، أن يرحل طويلاً عبر الهلال الخصيب من دمشق إلى جنين وعكا وبيروت، وكتب محفوظ على نفسه أن يبقى مسمراً في مصر حتى آخر قطرة من عمره، حتى أنه لم يرحل إلى حيث يتقلد منصب الفائز بنوبل للآداب، وترك هذا الشرف لمن يقدر على مفارقة أنفاس القاهرة ونفائسِها وبسطائِها.

وما يلفت أمثالي، من المحبين والمريدين، في الرجلين الكبيرين أن أياً منهما لم يصنع أجنحة ليطير بها إلى باريس أو لندن أو براغ أو إلى أي ظل أجنبي، مثلما فعل كثيرون من أدباء وشعراء العربية تحت طائلة حجج تبدأ بأفق الحرية المتاح وتنتهي بلذة الاغتراب والمعاناة.

لم يكن شرطاً عند عبقري الرواية العربية نجيب محفوظ أن تصاب بالاغتراب لتصبح مبدعاً، خاصة إذا كان اغترابك هو مجرد شهوة مكانية تسجل من خلالها موقفاً من مكانك وزمانك العربيين، حتى لو كان هذا الزمان وهذا المكان موجوعاً ومتأخراً عن غيره. كما أنه لم يكن ضرورياً عنده أن تتجنب الفصحى وتكتب بالعامية ليرضى عنك من يدعونك لاتباع ملة التحديث والواقعية. الانتساب قيمة قصوى للكاتب، وقد تعامل معها الراحلان الكبيران بمنتهى الجدية وبمنتهى الإصرار، حتى أنهما علَّما أجيالاً من مريديهما وقرَّائهما من المحيط إلى الخليج أن الإنسان المبدع إذا لم يشرب من ماء بلده تتقرح



أفكاره وقد يصاب بلوثة تأخذه أبعد مما كان يتصور، بعد أن قرر أن يحط على أشجار غريبة، لا يستظلها ناسه ولا تمت لواقعهم ومعاناتهم وإرهاصاتهم اليومية بأية صلة.

لقد أسقط شيخ التاريخ وشيخ الرواية العربيين نظرية التمدد عالمياً من أجل محلية أفضل، فهما من خلال انتسابهما لهذه المحلية، بل وإيغالهما فيها تمددا عالمياً حتى أصبحا علمين دوليين لا تكتمل دائرة البحث في التاريخ وتطور الرواية دون حضور أوراقهما المغلفة بأنفاس الداخل، المحلي والعربي. ومن هنا كسبا كثيراً من احترامهما، كما كسباه من صداقة القلم الدائمة ورَفعه على كل قيمة سواه في حياتهما، حيث فضَّلا ظل صداقة القلم على صداقة الشاشات والأضواء ومكبرات الصوت، التي استأثر بها من لم يبلغوا معشار ما بلغه أحدهما.

أخلص الراحلان لعلاقتهما بالحرف فلم يسمحا لأحد أن يطأ على ظله الممثل بهما وبغيرهما ممن احتفظوا، رغم العواتي والمغريات، بمساحة شاسعة بينهما وبين من يتربص بهما وبمخرجاتهما الفكرية والأدبية. ولذلك بقي ذكرهما مشروطاً بكل الوقار وبكل الاحترام، حتى من بعض من سجل بعض المواقف في حياتهما الطويلة الحافلة، أو درسهما ونقدهما بشيء من الحدة والتقليل من شأن قيمتهما الفكرية والأدبية.

ففي السواد الأعظم من الكتابات، لا تُذكر لأي منهما محاولة واحدة لفرز الناس والنصوص على قاعدة انتهاز الفرص أو تسجيل أهداف في مرمى الغيرة والتحاسد، كما هو شأن المثقف العربي بصورته العامة، حين لا يعترف بأحد غير نفسه ولا يؤمن بقدرة أدبية غير قدرته. وأتصور أن جائزة نوبل لو ذهبت لشخص غير العملاق نجيب محفوظ لبقينا سنوات طويلة موعودين بإطلالات هذا الشخص اليومية عبر كل الصحف والبرامج التلفزيونية.

لا أذكر شخصياً متى رأيت الفائز العربي بجائزة نوبل على شاشة التلفزيون. ولا يعود ذلك، بطبيعة الحال، لرداءة متابعتي، وإنما لكونه، فيما أتصور، اختار الجماهيرية الصامتة على عيون الكاميرات التي تنهش من قيمة ضيوفها حتى يصبحوا تقريباً بلا قيمة من كثرة ما يكررون وجوههم وأحاديثهم. وهكذا فعل العملاق الآخر نقولا زيادة، فمن يعرف له أحاديث تلفزيونية قريبة أو حديثاً واحداً فقط فليخبرني به. لقد كانا أكبر من عصرهما الضوئي وشاشاته ورغبات مذيعيه وسماجة بعضهم في بعض الأحيان. ولا أستبعد أن يكون أي منهما قد اختبر لغة المذيع الفصحى فوجدها ضحلة فصرفه إلى غيره ممن يتعشقون الظهور بغض النظر عن مستوى أو ثقافة من سيحاورهم.

ويبقى أنني لن أستطيع الوفاء برثاء العملاقين، وعذري أنني لست سوى ريشة في مهبهما وهيبتهما وحضورهما الطاغي طوال قرن من الزمان. لكن ما أريد أن أشدد عليه بهذه المناسبة أن ما غرفناه من معين فكرهما ونصوصهما، مع غيرهما من أهل الفكر والثقافة المخلصين النادرين في حياة أمتنا، هو الذي يجعلنا نقف على أقدامنا إلى الآن. وإذا لم ترزق هذه الأمة بمن يعوِّض الراحلِين الكبار فإنها ستفقد أقدامها وتتدحرج، كما هي مهددة الآن، إلى هاوية السطحية والاستسهال والصراع على المغانم الذاتية.

رئيس التحرير

قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

زاوية للحاسوب والتركيز على الصحة

أفيدكم باستلامي لجميع أعداد مجلتكم بانتظام شاكراً اهتمامكم بذلك. وأود أن أقيِّم القافلة ومحتوياتها على الشكل الآتي:

1 - طريقة طرح محتويات المجلة ممتازة، خصوصاً بوجود الترقيم ووصل الفقرات ببعضها، وهذا ما يشد القارئ.

2 - القضايا المطروحة في زاوية «قضايا» هي مسائل عصرية، والطرح فيها واف.

3 - في زاوية «طاقة واقتصاد»، تعلمونَ أن البترول هو من أهم مصادر اقتصادنا، ويهمنا أن نعرف أكثر عن طرق التنقيب قديماً وحديثاً، ومسميات البترول ومشتقاته.

4 - في زاوية «علوم وبيئة» مواضيع مفيدة. ولكني أفضل زاوية ثابتة مخصصة لتقنية الحاسوب.

5 - أتمنى استمرار زاوية الابتكارات والعلماء والمخترعين في شتى المجالات والصناعات.

6 - الملف المصور يحاكي خيال الرسَّام والشاعر. وهل من الممكن أن تكون هناك صور نادرة وتراثية في هذه الزاوية؟

7 - أتمنى تخصيص زاوية تهتم بالفتيان في عمر الدراسة، أو يستحسن أن تكون ملحقة بالمجلة، كي لا تتمزق المجلة كلها بين أيديهم.

8 - إننا نجهل الكثير من الشخصيات العلمية في مجتمعنا السعودي والعربي. وزاوية صورة شخصية تحقق رغبة الكثيرين في الاطلاع على شخصيات ناجحة والاستفادة من تجاربها.

9 - اختياركم لمواضيع ملف العدد يقع في شخصية المجلة، ومنها عرضكم لكيفية كتابة الصحف وتوزيعها في اليوم التالي.

10 - أصبح الغذاء والصحة جزءاً من حياتنا واهتمامنا الدائم. أرجو التركيز عليه في أعدادكم المقبلة.

عبدالرحمن السعيد
الخرج

دعاء من أرض الحرمين الشريفين

أهنئكم على ما تقدمه مجلتكم الأثيرة إلى قرَّائها من مفيد المعارف الإنسانية، وجديد الأخبار العلمية، في ترتيب قويم، وتنسيق جميل، وإخراج فني ينبئ عن دراية متميزة بالعمل الصحفي، وعلم بالحياة الفكرية، ومتابعة متجددة لذلك، وذوق فني رائع تظهر سماته في جمال توزيع ألوان الصفحات، وتنظيم الموضوعات. فلكم مني، من أرض الحرمين الشريفين، صادق الحب، ودوام الدعاء.

الدكتور عويد بن عياد المطرفي
أستاذ مشارك في قسم الكتاب والسنة، جامعة أم القرى

من قافلة الزيت إلى القافلة

الحقيقة أن علاقتي بقافلة الخير لم تنقطع.. لأنها تتجاوز ثلاثين عاماً، وهي سفر خالد، نستمتع بموضوعاتها القيمة، وكثيراً ما أرجع إلى أعدادها القديمة التي أحتفظ بها لأعيد قراءة ما سطَّره كبار الكتَّاب الذين عاصروا «قافلة الزيت» آنذاك. أما الموضوعات الجديدة والمتنوعة فهي تتماشى مع التطور التقني الجديد.. كما أنها تعكس النهضة الجبارة التي بدأت تتبوأها المملكة، وبالأخص انتشار الأكاديميات المتعددة التي أخذت تقام كصروح علمية شامخة في مختلف المناطق.

إنني من خلال متابعتي لهذه المجلة، أعرف مدى الجهد المبذول للتطوير حتى جاءت بهذا المستوى القيم، فأصبحت القافلة أشبه بـ «الإنسيكلوبيديا»، تجد فيها الثقافة العامة، والبحوث العلمية المتنوعة، تُكتب بأسلوب ممتع يحاكي لغة العصر. فهي بحق حديقة غنَّاء مثمرة، قطوفها دانية.

بارك الله لكم جهودكم، حيث جعلتم كل عدد يتفوق على ما قبله؛ لأن عملية الرصد والإخراج تأتي بشكل يجعل القارئ يتابع دون ملل.

عبدالرحمن إبراهيم الربيعان
الرياض

الفكر للإنسان العربي

عندما نسير في عالم المحبة والوفاء، فإننا نجد القافلة سفيرة في كل المعاني. بؤرة إشعاع حضاري ومعرفي يستبق الزمان والمكان. أناقة في كل شيء، حتى الرسوم والصور. تحمل طياتها منهجية الفكر للإنسان العربي، وطريقة تعامله مع ذاته ومع الآخرين في ظل عالم المتغيرات والعولمة.

لا بد من الشكر ولا بد من الوفاء.. لا بد من التقدير لروح الإبداع بكل المعاني.
أتمنى للقافلة والقائمين عليها التألق الدائم.
كل المحبة والاحترام والتقدير للمسيرة الرائعة لهذه القافلة.

الدكتور أنس محمود شنن
حلب، سوريا

مكتبة القافلة

أشكركم على اهتمامكم بكلمتي في عدد سابق حول موضوعي الخبز وشجرة الزيتون في باب قافلة القرَّاء. وأفيدكم بأنني والحمد لله افتتحت مكتبة للأدوات المدرسية سميتها باسم مجلتكم، فأصبحت مكتبة «القافلة».

كما أشكر الأستاذ عبود عطية على ملف

«الذهب»، أجمل الأشياء التي تتزيَّن بها النساء، والأستاذ رجب سعد السيد على موضوع الافتراس، وأيضاً على هدية العدد الأخير، الملصق حول الأماكن السياحية في المملكة العربية السعودية.

هالة أحمد إبراهيم الخولي
طنطا، مصر

بين القافلة وحال العالم

صار يشار في عصرنا هذا إلى الكلمة الهابطة على أنها فن. وعندما نتساءل ما هذا الفن؟ يرفع البعض عقيرته بالصياح مجيباً.. إنها العولمة. أما سمعتم بالعولمة؟ يا أخي صار العالم قرية صغيرة.

وترى في عصرنا استيلاء الماديات على عقول الناس، حتى أصبحت هناك قنوات تلفزيونية متخصصة بتجارة الرسائل الهاتفية الصغيرة. تقع عيناك عليها صدفة، فتُذهَل مما تراه ومن مضمونها. في هذا العالم، تقف مجلة القافلة اسماً على مسمى، إنها قافلة الفكر العربي المبحر عبر الزمان، تنقلنا من كتابات المتنبي إلى عصرنا هذا إلى القرن الحادي والعشرين.

وعندما نسير مع القافلة، نلمس الرقي في الفكر العربي المعاصر. فهي الجواب القاطع والرد الحاسم على دعاة الانحطاط. إذ تؤكد أن العولمة تستدعي أن نكون أرقى، وأكثر عقلانية، وأن ثقافتنا العربية الأصيلة تفرض وجودها في كل زمان كجوهرة ثمينة تتألق عبر الأزمان. وهذه هي القافلة، المنبر الحضاري المتألق الذي يشع فكراً وثقافة.

الدكتور محمد فاتح قشقش
سورية

مرجع علمي موثوق

شكري وتقديري للمستوى الثقافي والعلمي المتميز الذي أصبحت فيه مجلة القافلة، وقد دأبتُ منذ زمن طويل، حتى على أيام «قافلة الزيت»، على أن أقوم بتجليد كل خمسة أعداد معاً ويزدان بها ركن ليس بالصغير من مكتبتي الخاصة. فقد أصبحت القافلة من زمن بعيد من الدوريات العلمية الرصينة، وتعد من المراجع العلمية الأدبية الثقافية المتميزة، وقد أشرت إليها بصفتها مرجعاً علمياً موثقاً في كثير من أوراق البحوث التي حررتها لمشاركات تربوية خاصة.

محمد بن إبراهيم المهنا
الرياض

بيروت

سيكتبُ التاريخُ
أنَّ جنَّةً أرضيةً
مياهُها محبَّةٌ
وَطيْنُها ياقوتْ

تَفَرَّدَتْ بينَ حسان جيلها...
فمَرَّةً يدعونها «بيروت»...

ومرةً يدعونَها
سيدةَ الجمال والدهشة
«عشتروتْ»

صَبَّ عليها حقدَهُ الطاغوتْ

فأضرمَ النيرانَ في حقولها
دكَّ على أطفالها البيوت
صَيَّرَ من جبالَها شاهدة
ومن قراها كفناً
وسَهْلها تابوتْ

وكلما أوْغَلَ في قسوته
تنهضُ كالعنقاءِ من رمادِها

يموت غازيها
ولا تموت

يحيى السماوي

ردود خاصة

إلى الأخوة

• **عبدالله بن محمد ضيف الله، بالعلاء، الباحة:** أحلنا رسائلكم إلى قسم الاشتراكات لاتخاذ التدبير الممكن.

• **أحمد بن سليمان الحراصي، سلطنة عُمان:** قافلة الأبحاث ليست مسابقة، ولكنها نشاط بحثي مفتوح للقرَّاء الذين يرغبون في المساهمة بكتابة موضوعات تقترحها المجلة، أو يقترحونها هم سلفاًعلى المجلة. والعنوان الإلكتروني الذي يمكنك مراسلته لهذا الغرض هو: qresearch@qafilah.com

• **نبيل بن أحمد الحميد، مطار الملك فهد الدولي:** نقدِّر انطباعك عن القافلة وإعجابك بالملف المصور بشكل خاص، ولكن من الأفضل أن يحتفظ هواة التصوير بالملف ضمن المجلة وليس منفصلاً عنها.

• **الشركة السودانية للمناطق والأسواق الحرة، الخرطوم:** يسرنا اهتمامكم بالقافلة في إطار سعيكم إلى تطوير الموارد البشرية في شركتكم. وستصلكم أعداد القافلة تباعاً، إن شاء الله.

• **أحمد مصطفى حافظ:** التصويب الذي أرسلته يتعلق بخطأ ظهر في كتاب وليس على صفحات القافلة، ولذا من الممكن إرساله إلى دار النشر، أو إلى الكاتب عن طريق دار النشر.

• **كلية الصباح العربية، كيرلا، الهند:** وصلتنا رسالتكم، وفقكم الله في مساعيكم، وستصلكم «القافلة» بانتظام، إن شاء الله.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة ما بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.

حول

مقاربة تحليلية بين أعداد القافلة

عرفت القافلة طيلة حياتي، منذ أن كانت قافلةً للزيت، ولم أكن في الحقيقة أهتم بها في يوم ما، ولكنها كانت تصل إلى والدي بانتظام، ثم أتى اليوم الذي سافرت فيه مع زوجي المبتعث إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولم تسنح لي الفرصة لأرى القافلة من دون زيتها رغم أننا كنا نعود لقضاء الإجازات مع الأهل في المملكة. ولذلك، قد تفهمون دهشتي عندما رأيت عدد القافلة لشهر نوفمبر وديسمبر لعام 2005م صدفة، قبل شهور، على طاولة في منزل والدي. بالطبع، كون هذا العدد «قافلة» لم يكن مهماً إلى هذه الدرجة. ولكن تصميم «الشيخ المروبت!» على الغلاف لفتني. الألوان الحية من دون بهرجة أو ابتذال جذبتني، فمددت يدي لأعرف أية المجلات هي، وإذا بها «القافلة». سألت والدي عنها، فأبدى سخطاً محافظاً أدرك سببه. إنه يكنُّ ولاءً حاراً لقافلة الزيت القديمة، وقال لي إن قافلة الزيت قد تغيَّرت، وهي جيدة في أعداد، وسيئة في أعداد أخرى، ولتعذروا صراحتي، وأن غلاف العدد الذي اهتممت به كان من أسوأ أغلفتها على الإطلاق.

بالتأكيد.. كنت أخالفه الرأي!

ولا أبالغ، حينما أقول إنني منذ ذلك الوقت وأنا أقرأ القافلة بشغف. وقد تستغربون حينما أقول إن من أهم ما جذبني إلى القافلة الجديدة، هو كونها لا تمت بصلة إلى تلك القديمة، وأن فيها روحاً مختلفة مهما جامل المجاملون وقالوا إنها قد حافظت على شعرة معاوية.. فتلك الشعرة لم تكن موجودة أصلاً، ليحافظ عليها. يبدو واضحاً، من عدد الجسر، وهو العدد الأول الذي تغيرت فيه القافلة، أن خلقاً جديداً قد أتى ليحل محل القديم. ولا عيب في هذا، أو نكران لجميل.. وإن أزعج التغير بعض شيّابنا المحافظين الأعزاء ومنهم أبي.

العدد الأول منها.. انطلاقة غير مكتملة

أود أن أتحدث هنا عن عددين من أعداد القافلة وأبدي رأيي فيهما، وهما عددها الأول حول الجسر، وعددها الأخير حول المونديال. والفرق هائل بين العددين، ولكننا نرى التطور التدريجي من عدد إلى آخر، فلا نستغرب. القافلة بدأت بالجسر في رقي وهدوء ومحاولة لم تكن ناجحة تماماً لتقديم المختلف.. نعبر جسراً.. اختيار موضوع الملف كان ضربة موفقة لا أظن أن مجلة سبقتكم إليها. ولكن الملف كان مبعثراً من دون انسجام مرن بين أفكاره.. فكأنني أقرأ معلومات عن الجسر أستطيع أن أقرأ كل يوم منها صفحة دون أن يشدني تماسكها كي أجلس وأقرأه بشكل متكامل. هناك مواضيع كتب فيها الباحثون بطريقة مستوفية كبداية منهج القافلة البحثي وليس كاكتماله، مثل «سقوط المدخن في المجتمع المدني» و «فضاء خلفه فضاء»، وهناك مواضيع أتت باهتة رغم جاذبية مواضيعها مثل موضوع «أخلاقيات الحرب في الفتح الإسلامي» و «معانا نفط»، وهناك مواضيع أتت أدبية أكثر من اللازم من دون معلومات وحقائق ودراسات تدعمها بشكل كافٍ مثل موضوع «إلى المستمعين فقط» عن الراديو. الفاصل المصور لهذا العدد كان مملاً أكثر من اللازم.. تقليدياً أكثر من اللازم.. ولم يلفت انتباهي فيه سوى التشكيل الهندسي لكلمة الجنادرية في زاوية المقدمة. تفوَّق العدد الغريب كان في شيء نسيه فريق تحرير القافلة في غمرة انهماكهم بتحسين الأشياء الأخرى وهي تلك الزوايا التي تعرض كتباً في آخر كل موضوع. لم نعد نرى اهتماماً كافياً بذلك..

والعدد الأخير..

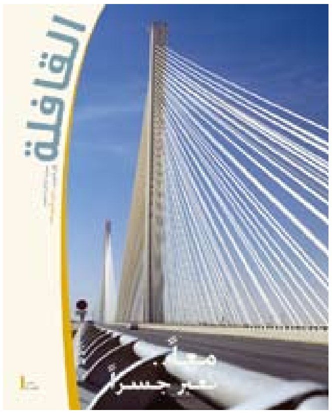
عدد المونديال كان فذاً بكل المقاييس. عدد حي حقيقي متجسد روحاً شابة ظهرت في عدد الشيخ المبرمج ونضج مع عدد القيادات الشابة لكنه اكتمل بعدد المونديال. وهي روح ليست مختلفة عن الروح التي صنعت عدد الجسر ولكنها أكثر حياة، إضافة إلى النضج الذي تتمتع به الشخصية الصحفية والذي أتى عبر السنوات.. ربما الغلاف ليس فناً صرفاً ولكن المهم أيضاً ما بين دفتي الغلاف وهي المواضيع التي تخطف الألباب بشبابيتها وجمالها. ملف عن الفريسة، فكرة عبقرية حركني جمالها وسحرتني روعة التناول. الفريسة أيضاً أستطيع أن أقرأ كل صفحة أو كل مقطع فيها على انفراد ولكني لا أريد.. فتماسك كل الفقرات هائل وجذاب، أجبرني على أن أقرأها كلها في مرة واحدة. وبارك الله في كاتب مثل رجب سعد السيد.. فلا أتذكر أنني استمتعت بملف من ملفات القافلة رغم جمالها وروعتها مثل ملف المهرج وملف السنة الهجرية وملف الخبز وملف الذهب كما استمتعت بملف الفريسة فكرة وتصميماً وكتابة.

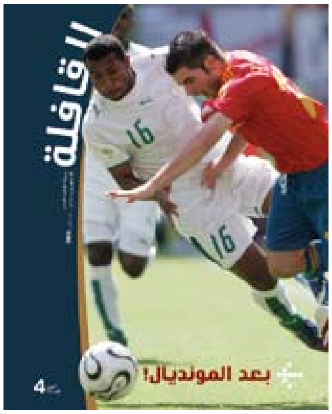
الوديعة عرض رواية مكتوب بحرفية وجمال، ونقل حدة في المشاعر رغم الحيادية التي تناول بها الرواية. ولكن مختارات الرواية التي وضعت في نص العرض كانت تمنح العرض غنى وذكاءً. الترجمة أيضاً كانت سلسة للغاية وممتعة، لدرجة أنني وقد قرأت الرواية استمتعت بقراءتها واستمتعت بذكاء اختيار النص المترجم الذي ينقل لحظة مكثفة في الصراع القائم بين أبطالها.

الضباب.. خلب لبي المشهد الذي صوره أحمد ماطر كخلفية.. وخلبت لبي القصيدة.. ولكن ما أثار اهتمامي هو الطريقة (الناطقة) التي كتبت بها! فهذه الطريقة تجعلني أسمع القصيدة دون أن أقرأها، وأسمع همس الملقي وصخبه.

حس الفكاهة في الأغنية موضوع كتب عليه الفشل منذ البداية.. فكيف تطلبون منا أن نضحك لأغنية مكتوبة؟! وبدت الأغاني المكتوبة، حتى تلك التي نعرفها ونضحك عندما نسمعها، هي أغان ثقيلة الظل، بدون لماحية. لا أنكر جهد الكتّاب، ولكن ليس الخطأ خطأهم، بل كان الموضوع نفسه مغامرة غير محسوبة جيداً.

محمود سالم في صورة شخصية؟ ابتهجت جداً لهذا الخيار.. وأشكركم لأنكم لا تتخيلون مقدار البهجة التي أدخلتموها على قلبي عندما رأيت تذكركم له، لدرجة أنني جمعت أبنائي وقرأت لهم الموضوع وحكيت لهم عن ذكرياتي مع المغامرين الخمسة.





موضوع البساطة، القيمة المفقودة لعصر التكنولوجيا، كان من أروع المقالات التي قرأتها على الإطلاق. سلاسة ولا أروع وفكر ولا أجمل ومنهج ولا أضبط. هذا المقال جعلني أنطلق باحثة أجمع معلومات قدر ما أستطيع حول الكاتب الفنان أشرف إحسان فقيه وقرأت مجموعة من مقالاته المنشورة في صحيفة

اليوم، وعجبت.. كيف لم يعطه الجمهور والقارئ السعودي ما يستحقه.. ولكني عدت فاستغفرت الله من عجبي..! ألست سعودية وأعرف كيف يفكر السعوديون؟

قضية العدد، رغم أن ثلاثة كتَّاب قد تناولوها، ورغم أنها متماسكة وسلسة إلا أنها غير كافية. وكأنك تقرأ كتاباً من أجمل ما قرأت، وتكتفي فيه بالفصلين الأول والثاني. مع ذلك.. هي نقلة حرة مباشرة في تاريخ القافلة، وتاريخ المجلات الثقافية العربية المتحفظة الرافضة للخروج عن تقليديتها!

في النهاية أود القول إن القافلة تغني بالتأكيد حياتي.. أثرها محدود نعم بسبب قلة أعدادها (ستة أعداد في سنة كاملة؟) وقلة قرَّائها.. لكنها مع ذلك، تبرز كأجمل المجلات العربية وأحلى الإسهامات الثقافية بالتأكيد لأرامكو.. لأنها عربية حقيقية تُكتب من العمق.

أم عبدالكريم
شهد بدر
حول مجلة القافلة عدد يوليو-أغسطس 2006

حول

ثقافة كرة القدم

خرجت كرة القدم من نطاقها الضيق كلعبة مثيرة إلى حد الجنون، شعبية إلى حد الهوس العالمي، وأصبحت نشاطاً اقتصادياً له رجاله، وثقافة لها أهلها وفرسانها.. لها مفرداتها ولغة في إطار أدبيات كروية تتجاوز أخبار اللاعبين ووصف المباريات إلى فلسفة اللعبة، وأضحت ظاهرة اجتماعية حقيقية ثابتة المعالم، وعضواً ثقافياً في سلك المجتمع.

إن ثقافة كرة القدم هي ثقافة تدرك نفسها كمرجع نهائي. وكان المشجعون يعرفون هذه الحقيقة، لكن هذه المعرفة صارت الآن شائعة في إيقاع زمن لاهث لا يعرف فيه الناس ما قد يفعلون غير متابعة الحدث على شاشة التلفاز ووسائل الإعلام.

للكاتب حسَّان الزين تفسيره الخاص في تفشي «ثقافة القدم» حيث يقول: «من المؤكد أن الفراغ يظهر في حياة العديد من المجتمعات كعلامة فارقة من علامات الرتابة والضجر، وهو بالتالي يحكم العلاقة بين المكونات النفسية للجماعة، والنسق العام لحضارة عمياء تتسم هي الأخرى بطابع فقدان اليقين والغايات ما عدا التجارة والربح. والمعروف أن هذين الهدفين هما طرفا المجرى الذي تتدفق فيه ثقافة التسطيح والتبليه، وتنشق منه وتتفرع عنه روافد النجومية والإعلامية، وتلك المسليات المكتوبة والمسموعة والمرئية، التي ستكون وظيفتها في هذا السياق ملء الفراغ باللا معنى، وامتصاص السأم الناشئ أيضاً من الفراغ ذاته».

وتكاد طاقة الفكر يخبو توهجها في هذا العصر إزاء بريق كرة القدم الذي أعمى الأبصار، فالزمن الذي كان فيه الفكر هادياً للبشرية يبدو أنه قد ولّى.. إنه زمن الانحدار الرديء واختلاف القيم.. ورحم الله الكاتب توفيق الحكيم. فهو لم يدرك ارتفاع أجور اللاعبين إلى سقف لم يكن أحد يتخيله، فقد قال في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي «كان أملي أن يُعطَى للعقل اهتمام مماثل للاهتمام بالقدم، وإلا ما شاهدنا كرة القدم تحتل هذه المساحة الزمنية الكبيرة في التلفاز، لقد أصبح اللاعب يعيش حياة لا يعيشها أكبر كاتب، وتتدفق عليه الأموال لمجرد أنه أدخل الكرة في الجون ويبدو أننا في زمن كرة القدم وليس الفكر، والحمد لله الذي جعلني لا أنحرف نحو هذه الهواية».

وفي الوقت الذي كان فيه العالم منهمكاً بمتابعة مباريات كأس العالم 1986م، ومبهوراً بسحر قدمي مارادونا، كان الكاتب الأرجنتيني الشهير خورخي بورخس يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهو الذي أطلق عليه لقب «صاحب أثمن رأس في الأرجنتين». ولكن هذا الرأس الثمين المتوقد نبوغاً ومعرفة تلاشى بكل هدوء وصمت لدرجة أن أحداً باستثناء زوجته لم يلحظ وفاته. وعندما وصل النعي إلى مسقط رأسه في بوينس آيرس كان الناس هناك منشغلين بقدم مواطنهم مارادونا الذي قاد بلاده إلى الفوز في المونديال العالمي. في حين كان بورخس يعاني الفاقة والنكران من قبل مواطنيه.

وفي ظل العولمة والاحتراف، تصبح الكرة الأرضية كلها لعبة بين الأقدام.. تفرض كلمتها على الكل.. وفي مقدمة هؤلاء أصحاب الأقلام أنفسهم الذين تأثروا باللعبة بإرادتهم الحرة أو بالقوة المضيئة الهائلة بفعل المال والجاه.

وها هي كرة القدم اليوم.. كما نرى، إمبراطورية كبرى تتصارع فيها الشركات العملاقة متعددة الجنسية، حتى تحوَّل المونديال الأخير في ألمانيا إلى بازار اقتصادي ومالي وتجاري ضخم، شاركت فيه كبرى مؤسسات العطور ومواد التجميل والمرطبات والأجهزة الإلكترونية وغيرها، وكلها تدفع المليارات لكي تصل إلى الملايين من البشر الذين يتابعون المونديال، حيث تفرض هذه الشركات ثقافتها وتغزو العقل سلعتها.

عبدالكريم النجفي
العراق
حول موضوع «المونديال.. الذي لا يشبه شيئاً آخر»، القافلة عدد يوليو-أغسطس 2006

قافلة القرّاء

حول

حول روح النكتة في الأغنية العربية

كان الكاتب -في رأيي- مقصِّراً في استيفاء جوانب الموضوع، كما أنه أورد معلومات غير صحيحة. ولهذا أكتب هذا التعقيب توضيحاً واستدراكاً وإضافة، فأقول:

- ذكر أن بديع خيري ألَّف في فيلم «غزل البنات» أغنية : عيني بترف، وراسي بتلف،...». وهذا غير صحيح؛ فجميع أغاني الفيلم من تأليف حسين السيد وتلحين محمد عبدالوهاب.

- نسب لأبي السعود الأبياري تأليف «يا عيني ع العز يا (روحي ع العز)» التي غنَّاها إسماعيل ياسين في فيلم «المليونير»، ولحنها عزت الجاهلي. والصواب أن المؤلف مأمون الشناوي.

- ذكر «الفوازير» لأم كلثوم، ولم يذكر مؤلفها محمود بيرم التونسي وملحنها زكريا أحمد.

- قال: فريد الأطرش الذي اتسمت أفلامه الأولى بالعديد من تلك الأغاني (يقصد الفكاهية) مثل الدويتو الشهير مع شادية «يا سلام على حبي وحبك» و «يا ما جوا الدولاب مظاليم بيقاسوا وحالتهم جيم». وأقول: ليس ذلك في أفلامه الأولى؛ فأول أفلامه «انتصار الشباب - 1939م»، أما الحوارية الشهيرة مع شادية «يا سلام على حبي وحبك» فهي في فيلم «إنت حبيبي» إخراج يوسف شاهين 1958م. أما «يا ما جوَّا الدولاب مظاليم» فلم يغنه بمشاركة أحد، بل غناه في الدولاب منفرداً تحت تهديد مسدس عبدالسلام النابلسي في فيلم «عايزة أتجوز» إخراج أحمد بدرخان 1952م، وهو من تأليف الأبياري. المهم أنهما ليس «أول أفلامه».

- ذكر لعبدالعزيز محمود «يا شبشب الهنا (قلوبنا فرشتك) يا ريتني كنت أنا»، وهي أغنية غزلية خفيفة من تأليف فتحي قورة.

- أما «يا تاكسي الغرام» لهدى سلطان، فليست فكاهية كما زعم، بل حوارية استعراضية مع عبدالعزيز محمود في فيلم يحمل عنوان الأغنية، أخرجه نيازي مصطفى 1954م، وألَّف الحوارية جليل البنداري.

- أغفل سيد المعارضة الساخرة (parody) أعني فتحي قورة. وقد شاع -والله أعلم- أن سبب انصراف عبدالوهاب عنه إنما كان بسبب معارضته لأغانيه. المهم أنه ألَّف لنجاح سلام في فيلم (ابن ذوات):

جـــمـــيـــل جـــمـــال
مـــا لـــوشـــن مـــثـــال
صـــــدق الـــلـــي قـــال
زي الشــــــــــــوال

وهي محاكاة للأطرش كما لا يخفى. ومنها محاكاته أغنية (القمح) لعبدالوهاب:

العدس الليلة ليلة عيده
يـــا رب تـــبـــارك وتـــزيـــده
يـــا رب تـــبـــارك يـــا رب
يـنـدلـق الـعـدس ويـنـكـب
أصـفـر ومـنـيِّـل عـلـى عينه
تـار بايـت بيـنـنـا وبيـنـه ... الخ.

وهذه غنتها نعيمة عاكف لزميلاتها في فيلم «أربع بنات وضابط». ومن ينسى له «يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي» التي غناها عبدالحليم حافظ في فيلم «ليالي الحب» ولحنَّها محمود الشريف، وفيها محاكاة ساخرة لأربع أغانٍ قديمة. كذلك جعل شادية تغني لإسماعيل ياسين:

انـتَ انـتَ ولا انـتـاش داري
بـقـك انـتَ مـمـر تـجـاري

وهي محاكاة لعبدالوهاب. ثم إنه ألَّف أغلب معارضات محمود شكوكو ومنها معارضة «أنت عمري» من تلحين عبدالوهاب وشعر أحمد شفيق كامل، يقول:

يا أغـلـى مـن أيـامـي ... يـالـلـي سـاكـن قـدَّامـي
انـزل من عـنـدك انـزل ... بـلاش غـرام فـي الـمـنـزل

- أغفل الكاتب الشاعر حسين طنطاوي الذي تعاون مع سيد الملاح ملحناً ومؤدياً لمجموعة «السمسمية»، وهي أغانٍ انتقادية ظريفة على أنغام هذه الآلة الشعبية، ومنها:

ابـنـي تـوتـو ابـنـي ميـمـي
رجَّـالـة والاسـم حـريـمـي

وفي أغنية أخرى:

لو شـرب الطـالـب دخـانـاً ... أصـبـح قـرداً مـش إنـسـانـاً
لأبـيـكَ مـرتَّـبٌ عـلـى قـدّه
بـعـذاب يـصـل إلـى يـده
لا تـأخـذْ قـرشـاً مـن كـدّه
كـي تـشـعـلَ فيـه الـنـيـرانـا

ويلاحظ القارئ المزاوجة بين الفصحى والعامية.

- أغفل أسماء أصحاب الأغنية الانتقادية: إسماعيل ياسين وثريا حلمي وسعاد أحمد ولبلبة وأحمد غانم وعمر الجيزاوي، وأغلبها من تأليف: ابن الليل ومحمود فهمي إبراهيم وحسيب غُباشي وفتحي قورة أيضاً.

- أما معارضة «قارئة الفنجان» فأعتقد أن أفضل من عارضها فكري الجيزاوي. قال:

بـحـيَـاتـك يـا ولـدي امـرأةٌ
تُـروِّضُ فـي الـسـيـرك أسـود
فـمُـهـا بـيـنـقـط صـبـغـة يـود
أسـرتـهـا نـسـانـيـسٌ وقـرود
والـصـوت الـغـجـري الـشـردوح
يـلـمٌ عـلـيـك كـل الـدنـيـا
يَا تَقول: أنـا مقطف يا ولدي
يـا تـبـوس الـكـعـب الألـمـونـيـا

عبَّاس علي السوسوة
أستاذ اللسانيات، جامعة تعز - اليمن

حول مقالة «حس الفكاهة في الأغنية العربية»، القافلة عدد يوليو-أغسطس 2006

حول

الذهب نوبي وليس فرعوني

اطّلعت على ملف الذهب بالعدد رقم 3 المجلد 55 بتاريخ مايو -يونيو 2006م. ولدي تعليق بسيط على فقرة معينة جاءت بالمقال الذي احتوى على الكثير من المعلومات المفيدة. فلقد ذكر المقال «حين كان كل ذهب العالم مصرياً استنفد فراعنة ثلاثين أسرة معظم مناجم الذهب في النوبة (نوب بالفرعونية تعني الذهب).

والصحيح أن مصر لم يكن فيها منجم واحد للذهب، والأراضي المصرية خالية تماماً من هذا المعدن وما أتى إلى مصر كان من بلاد النوبة التي يقع جزؤها الشمالي الآن بجنوب القطر المصري، بينما أغلب أراضيها في الجزء الشمالي لسودان اليوم.

وظلت بلاد النوبة ذات شخصية مستقلة سياسياً وثقافياً عن الحضارة الفرعونية إلا في فترات تاريخية معروفة استولى فيها فراعنة مصر، ومن أتى بعدهم، على بلاد النوبة ومناجمها المعروفة إلى يومنا هذا. ولكن كانت تعود بين الفينة والأخرى إلى استقلالها وظلَّت مناجم الذهب فيها بالفعل سبباً في سقوطها تحت الأسر الفرعوني. أما عبارة (نب) فهي أساساً من اللغة النوبية وليست المصرية لأن بلادهم كانت تنتج هذا المعدن وتبيعه لمصر الفراعنة أو يؤخذ منهم عنوة. ولشهرة بلادهم بهذا المعدن أطلق عليها (بلاد الذهب) أي بلاد النوبة.

المهم في الأمر أن المسمى من اللغة النوبية وليست المصرية كما ذكرتم. وهناك فارق بين اللغتين، وإن كانت هناك بعض الكلمات المشتركة. وبالطبع أخذها المصريون عن النوبيين.

الدكتور محمد أقاشا خليل

الرياض

حول ملف «الذهب»، القافلة عدد مايو-يونيو 2006

وردنا

• تَبَاهَيْ



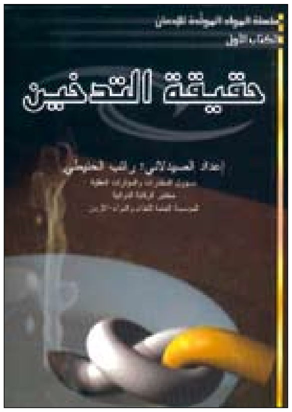
مجموعة شعرية جديدة للشاعر السعودي محمد بن عبدالرحمن الحفظي، وهي السادسة بعد دواوينه السابقة: قصائد من الجبل (وهو ديوان مشترك)، لحظة يا حلم، أولى تجاوزات.. لا، غبار الجسد الباقي، واشتعال الرَّمَق. تقع هذه المجموعة في 128 صفحة، وتتضمن ثلاثين قصيدة، إضافة إلى خاتمة بعنوان: «إلى هذه الدرجة يكون الغياب؟» وتنتمي إلى النثر الفني كما يشير الشاعر نفسه.

• أدب الصحراء



دراسة جديدة صدرت مؤخراً تتناول مقطَّعات الأعراب النثرية، للدكتور عبدالله بن سليم الرشيد. الدراسة اشتملت على ثمانية فصول، خصَّ المؤلف كلاً منها لمبحث محدد، والأبحاث الثمانية هي: مقطَّعات الأعراب النثرية بين يدي النقد قديماً وحديثاً، مدارات الفكر، مستويات العاطفة، البناء، الألفاظ والتركيب، البديع، الإيقاع الموسيقي، الصورة ومصادرها. ولكل فعل إحالات خاصة به تضفي عليه أهمية خاصة لدى الباحثين في عالم النشر العربي. وتتصدر الكتاب الذي يقع في 121 صفحة، كلمة للجاحظ يقول فيها: «ليس في الأرض كلامٌ هو أمتع ولا آنَفُ ولا ألذُّ في الأسماع، ولا أشدُّ اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتقُ للسان، ولا أجود تقويماً للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء النبغاء».

• حقيقة التدخين



كتاب من إعداد الصيدلاني راتب الحنيطي، مسؤول المخدرات والمؤثرات العقلية في مختبر الرقابة الدوائية في الأردن. وعلى الرغم من أن الكتاب صغير الحجم (142 صفحة) إلا أنه يتضمن معالجات وافية لكافة المسائل المتعلقة بالتبغ والتدخين بدءاً من زراعته ومكوناته الكيميائية إلى علاج المدمنين على التدخين، مروراً بوصف النيكوتين وآلية عمله، والتدخين والتداخلات الدوائية، والتسمم بالتدخين بنوعيه الحاد والمزمن، وصولاً إلى التعامل مع الانتكاسة في الإقلاع عن التدخين.
إلى ذلك يتضمن الكتاب خمسة ملاحق تتضمن وثائق وتقارير علمية، أبرزها: مصطلحات متعلقة بموضوع الإدمان، تقارير ودراسات مختارة حول أضرار التدخين، ومنظمة الصحة العالمية لمراقبة التدخين، والنظرة الإسلامية للتدخين.

ثمار دخول المرأة سوق العمل..

على الرغم من أن المرأة كانت في كل المجتمعات عاملة، لا بل إن بعض الأعمال كانت حكراً عليها، إلا أن خروجها إلى عالم العمل «المدفوع الأجر» كان من أبرز التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها القرن العشرون.

ومهما تفاوتت مستويات انخراط المرأة في سوق العمل بين بلد وآخر، مثيرة أسئلة وقضايا مستجدة أكثر تفاوتاً بين هذا المجتمع أو ذاك، فإن هناك اعترافاً عالمياً بأهمية الدور الذي باتت المرأة تلعبه على صعيد الاقتصادات الوطنية ونموها، وبوجوب الاستفادة من هذا الدور إلى أقصى حد ممكن.

القافلة تتناول هذه القضية من خلال بحثين: أوّلهما من إعداد هدى بتروبولوس[1] التي تلخِّص ما آل إليه وضع العمل النسائي في الغرب، حيث يبدو أن مسيرة أكثر من نصف قرن لم تصل به إلى الاستقرار تماماً، إذ لا يزال يواجه قضاياه ومسائله الخاصة. وثانيهما من إعداد صفية الجفري[2] التي تتناول موضوع المرأة السعودية وانخراطها في سوق العمل من جوانبه الاقتصادية والاجتماعية التي تتجلى في مسيرتها الفتية.

1 ديمومة النقلة إلى سوق العمل

هدى بتروبولوس

يبدو للكثيرين اليوم أن أي مراجعة للتحوّلات في القرن العشرين لا بد أن تقف على متغير أساس حصل في النصف الثاني منه، ألا وهو دخول المرأة معترك سوق العمل بشكل واسع. البيانات الاقتصادية للعقود الثلاثة الأخيرة في الدول الأكثر تطوراً تشير إلى أن النساء شكلن العنصر الغالب في إيجاد الوظائف الجديدة وبالتالي في تشكيل النمو الاقتصادي. وأحدث هذا التحول تغييراً أهم بكثير من التغييرات السابقة التي دخلت على حياة المرأة والأسرة والمجتمع والاقتصاد. ولم يأتِ وحيداً، بل متضافراً مع تطورات تكنولوجية سمحت بتسهيل العمل المنزلي والأسري والحياة بشكل عام، وترافق أيضاً مع معطيات اقتصادية اجتماعية داعمة له. وتشكل وعي جديد كان جزءاً من حركة أوسع بدأت في الستينيات، وبدّلت النظرة إلى النساء وتفعيل قدراتهن وإعطائهن فرصاً متساوية للعمل.

1- باحثة عربية مقيمة في اليونان
2- باحثة سعودية

عالمياً ومحلياً



المحترف السعودي

مع حلول السبعينيات باتت النساء من جميع الفئات يمارسن وظائف دائمة، وأصبحن عنصراً يحسب له الحساب اقتصادياً

قد يقول قائل لماذا هذه الوقفة حول النساء والعمل؟ فالنساء منذ القدم يعملن داخل المنزل وخارجه. فالزراعة منذ تاريخ نشوئها تعتمد عليهن، والأعمال اليدوية من نسيج وغزل وغيرها كانت من اختصاصهن، ناهيك عن أعمال كثيرة أخرى. وتشير دراسة أوروبية (دراسة عن النساء والعمل والعمالة في أوروبا صادرة عن جامعة فرنسية) إلى أن النساء يسهمن دائماً في الإنتاج الاقتصادي في البلدان الأوروبية. وفي فرنسا، مثلاً، حين وصلت معدلات العمالة النسائية في أوائل التسعينيات إلى 37.9% ناهزت قليلاً نسبتها في عامي 1896 و 1921م عندما وصلت على التوالي إلى 35 و 36%. فماذا تغيّر بالنسبة إلى النساء والعمل منذ منتصف القرن الماضي ليستوجب هذه الوقفة؟

...إلى العمل الدائم

المتغير الأساس حسب ما تشير إليه معظم التحليلات كان تبدل أنماط عمل النساء في الغرب في إطار دخولهن الأوسع إلى سوق العمل. فالتحوّل الاقتصادي دفع النساء إلى العمل على قاعدة دائمة، بعدما كان توظيف النساء يتركز في الإنتاج الريفي والزراعي وفي التجارة الصغيرة والحِرَف، وكانت النساء يعملن في غالب الأحيان في المنزل أو في أشكال من الصعب التمييز فيها بين الإنتاج الاقتصادي والاقتصاد المنزلي. ومنذ النصف الثاني من القرن الماضي حصل تغيير أساس مع دخول النساء في التوظيف المدفوع الأجر الدائم خارج المنزل. قبل ذلك، كان عدد قليل من النساء قد عملن خارج المنزل بعد الزواج وإنجاب أطفال، أي بطريقة مستدامة، وهي القلّة التي كانت الأشد احتياجاً إلى العمل، وتشكّلت في الولايات المتحدة مثلاً من فئات المهاجرين الجدد أو السود.

وتشير بعض الدراسات إلى أن التوسع والتطور الاقتصاديين ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما رافقهما من ظهور ما يسمى بدولة الرفاه، قد خلق وظائف جديدة في قطاع الإدارة والخدمات تتطلب مستوى أعلى من التعليم. وبدأت نساء الطبقات الوسطى بتوسعة دخولهن إلى حقول هذه الوظائف. ومع حلول السبعينيات باتت النساء من جميع الفئات يمارسن وظائف دائمة، وأصبحن عنصراً يحسب له حساباً ضمن قوة العمل في المجتمعات المتطورة اقتصادياً. وقد عرفت هذه المجتمعات أيضاً في النصف الثاني من القرن الماضي توسعاً كبيراً في حقل الدراسات العليا، الأمر الذي شمل أيضاً النساء اللواتي باتت ثقافتهن المتزايدة مصدر قوة مجتمعية لا يمكن إغفالها.

عمل الأمهات وتفاوت الأرقام

تفيد الإحصاءات أن توسع العمالة النسائية في العقود الأربعة الماضية في الدول الغنية اقتصادياً قد ترافق مع زيادة هذه المعدلات بشكل أساس وبطريقة منتظمة لدى الفئة العمرية ما بين 25 و 49 عاماً، أي الفترة التي يجري فيها إنجاب أطفال ورعايتهم. لا بل أصبحت في أحيانٍ كثيرة معدلات العمالة النسائية لفئة الأعمار هذه أعلى من الفئات الأخرى. ودلالة هذا التغيير أن المزيد من النساء ينخرطن في مهن دائمة لا تقطعها الأمومة، مما أدى إلى تجانس أكبر في أنماط العمالة بين النساء والرجال. «إن الأمهات، إذن، هن اللواتي صنعن بشكل أساس الزيادة في عدد السكان العاملين وبالتالي في النمو الاقتصادي». (دراسة عن النساء والعمل والعمالة في أوروبا). هذا في حين تتوجه نسبة مهمة من النساء ممن هن دون 25 عاماً إلى التعليم العالي. إلا أن التفاوت لا يزال ظاهرة أساسية بين البلدان، حيث تتراوح معدلات العمالة بين نسبها الأعلى في البلدان الإسكندنافية (تصل في السويد إلى 78.1%)، ونسبها الأدنى في بعض بلدان الجنوب الأوروبي التي تقل عن 50%. فيما لا يزال معدل العمالة النسائية الأوروبية بشكل عام أقل منه في الولايات المتحدة.



أرشيف المحترف السعودي

الطريق إلى العمل.. من إيقاعات الحياة اليومية للمرأة

إن إزالة كاملة للفجوة بين الرجل والمرأة في سوق العمل لم تحصل في أي بلد، ولكن البلدان الإسكندنافية هي الأكثر تقدماً في هذا المجال

وتظهر الدراسة أن التبدل المهم يظهر في تغير الأنماط. فبينما كانت ظاهرة العمالة الدائمة في الستينيات موجودة في بلدين أوروبيين فقط –في السويد وفنلندا– وهيمن في الجنوب الأوروبي نمط واحد من معدلات العمالة المنخفضة لمن هن بين 25 و 49 عاماً (حوالي 20%)، أصبحت معدلات العمالة، بعد ثلاثة عقود، لمن هن بين 25 و 49 سنة أعلى في جميع البلدان: في اليونان وإسبانيا وإيرلندا (بين 40 و 50%)، في النمسا وهولندا وبلجيكا وألمانيا ثلثي النساء، وهو المعدل الأوروبي، في فرنسا والبرتغال وبريطانيا ثلاثة أرباع النساء، وفي الدنمارك وفنلندا والسويد حيث 9 من أصل 10 نساء من فئات الأعمار المذكورة في الوظيفة. أما في الولايات المتحدة فقد ارتفعت معدلات العمالة النسائية فوق سن 16 عاماً من 43 إلى 60% عام 1999م. وزادت معدلات مشاركة من هن بين 25 و 59 عاماً من 47% عام 1975م إلى 73% عام 2000م (نقلاً عن إحصاءات دائرة العمل في الولايات المتحدة لعام 2005م). هذه الأرقام يجب رؤيتها بشيء من الواقعية، حيث تنحدر معدلات العمالة لدى الأمهات، خاصة لمن لديهن أكثر من ولدين أو إذا كان سن الولد صغيراً، بالإضافة إلى أن نسبة مهمة من النساء الأوروبيات يعملن في أعمال جزئية.

الضرورة الاقتصادية في الميزان

إن الوضعية الجديدة للنساء في سوق العمل في هذه البلدان لا تشكف فقط، كما يرى المحللون، عن تبدل النظرة إلى النساء ودورهن، بل هي وبشكل متزايد تلبية لضرورة اقتصادية. فمقولة إن البلدان التي لا تقوم برسملة كاملة لقدرات نصف مجتمعاتها (أي النساء) تهدر مواردها البشرية وتضعف احتمالات تنافسيتها الاقتصادية، ليست مقولة دعائية بل لها موقع في صلب السياسات الاقتصادية والتنموية في المجتمعات الأكثر تطوراً اقتصادياً. فالتطور الاقتصادي حوَّل الإنتاج التقليدي ذا الطابع المنزلي إلى إنتاج موسّع ومتطور تكنولوجياً، وبات يفرض على عمل النساء الخروج من إطاراته التقليدية إلى إطاراته الحديثة في سوق العمل. ودخل العمل المنزلي أيضاً في السوق ولو بشكل جزئي مع دخول التجهيزات المنزلية الحديثة والاستعانة بيد عاملة مساعدة مدفوعة الأجر.

وبسبب الضرورة الاقتصادية، فإن تشجيع النساء في سوق العمل قد خطا خطوات مهمة ضمن السياسات الاقتصادية والتنموية في العقد الأخير. السياسة الأوروبية الموحدة في تركيزها على المنافسة الاقتصادية في مطلع القرن الواحد والعشرين في إطار قمة ليشبونة، وضعت هدفاً أساساً وهو رفع المتوسط الأوروبي لمعدلات العمالة لكي يقترب من المعدلات الأمريكية، وتعزيز مشاركة النساء في مهن علمية تكنولوجية ضمن منظور يؤكد أن الاقتصاد الأوروبي، نتيجة تضاؤل نمو السكان، هو أحوج إلى اليد العاملة النسائية من السابق. وتتشارك في هذا الاهتمام أيضاً الأمم المتحدة، التي خرجت منذ انعقاد المؤتمر العالمي حول النساء في بكين عام 1995م، ببرنامج عمل لضمان انخراط النساء في النشاطات الرئيسة، يدعو إلى تطبيق منظور الجندر على جميع المسالك والمعايير القانونية والاجتماعية، وعلى جميع سياسات التنمية والبحث والتخطيط والترشيد والتطوير والتنفيذ والمراقبة. وحفّز ذلك أكثر من 100 بلد على وضع مبادرات جديدة لتحسين وضع النساء.

إن التناقض بين الواقع الاقتصادي الذي بات يتطلب مشاركة النساء في سوق العمل وبين ثقافة متوارثة حددت دورهن في إطار سلبي وخاضع قد أفرز في العقود الأخيرة في الغرب تحوّلات جديدة في الإدراك والوعي، وفي تبدل النظرة إلى النساء وأدوارهن ضمن تفكير ينحى أكثر فأكثر صوب المساواة. هذا التناقض لم ينته ولو أن العمل خارج المنزل في إطار السوق الاقتصادي أصبح القاعدة بالنسبة للنساء في البلدان الغنية اقتصادياً، أي أن مساواة الجندر لم تتحقق رغم التغيير المهم الذي أدخلته التبدلات على جميع مستويات المجتمع، ورغم أن مساواة النساء قد أصبحت مبدأً مقبولاً على مستوى الرأي العام، وأصبح الانحراف الواضح عنه في المجتمعات الغربية يواجه باعتراضات من أعضاء هذه المجتمعات، خاصة النساء منهم.

ما تغيّر وما لم يتغير

في قياس ما تحقق من تضييق الفجوة بين الجنسين، على مستوى المشاركة الاقتصادية والفرص الاقتصادية والتمكين السياسي والتحصيل العلمي، يعتبر تقرير صادر عن المنبر الاقتصادي العالمي (2005م) أن إزالة كاملة لهذه الفجوة لم تحصل في أي بلد، وأن البلدان التي نجحت أكثر من غيرها في ذلك هي البلدان الإسكندنافية وتحتل السويد المقام الأكثر تقدماً في العالم في هذا

حققت النساء تقدماً مهماً في مهن عالية الأجر، وهذه الفئة من النساء كانت نسبتها أعلى في الولايات المتحدة ولم تكن ممثلة بشكل كبير في أوروبا



أرشيف المحترف السعودي

الاتجاه، فقد دخلت اليوم النساء في البلدان الغربية، وحتى في البلدان الآسيوية المتطورة، وبأعداد كبيرة إلى سوق العمل، وفي أغلب الأحيان بوتيرة دائمة أو متقطعة جزئياً. لكن هذه المشاركة كانت متفاوتة بين بلد وآخر، ولا تزال معدلات العمالة النسائية في عدد من البلدان الأوروبية الجنوبية، وكذلك اليابان، أقل من 50%. ويتركز عمل النساء بصورة أساسية في قطاع الخدمات. لا بل يمكن القول إن توسع قطاع الخدمات في العقود الماضية هو الذي شجّع على دخول النساء بشكل واسع إلى أسواق العمل. وحققت النساء تقدماً مهماً في مهن عالية الأجر، وهذه الفئة من النساء كانت نسبتها أعلى في الولايات المتحدة ولم تكن ممثلة بشكل كبير في أوروبا. احتلت النساء في الولايات المتحدة نصف الوظائف الإدارية والمهنية عام 2000م. بالمقابل، لا تزال أغلبية النساء العاملات يعملن في الوظائف الأقل أجراً في المجتمع، ومنها وظائف غير مضمونة وغير مستقرة. بهذا المعنى تأسس تفاوت أكبر بين النساء العاملات، بحيث شكلت ظاهرة صعود فئات من النساء ذات الاختصاص والتعليم السلم الاجتماعي من أهم التغيرات التي حصلت في الأربعين سنة الماضية. ولم يأت هذا الصعود من دون ثمن في سعي النساء المهنيات إلى الموازنة بين العمل والعائلة ضمن محيط اجتماعي لم يستيقظ بشكل كامل بعد على المتطلبات الجديدة.

وفي العقود الثلاثة الماضية ضاقت الهوة في الأجور بين النساء والرجال، بحيث أصبح متوسط أجور النساء يشكل 80% من أجور الرجال في الولايات المتحدة وحوالي النسبة نفسها في أوروبا. لكن هذه النسب لا تدل بشكل دقيق على واقع أن معدلات مداخيل النساء لا تزال أقل بكثير نظراً لانقطاع النساء من العمل لدواعي الأمومة. وتعود أيضاً الفوارق في معدلات الأجور بين النساء والرجال إلى واقع أن النساء هن أكثر تمثيلاً ضمن فئات الأجور المنخفضة ويتركزن في الهرمية المهنية الأدنى.

لقد أزيلت على المستوى القانوني العوائق للتوظيف المبني على التمييز بين الجنسين ودخلت النساء منذ عام 1970م في ميادين أعمال كانت تعتبر تقليدياً حكراً على الرجال. لكن هذا الدخول ظل محدوداً، ولا يزال عمل النساء يتركز في المهن التقليدية التي عملت فيها المرأة، كالتمريض والتعليم والعمل المكتبي والاهتمام بكبار السن والمعوقين، وهي مهن غالباً ما تتميز بأجور منخفضة. كما أن تقدم النساء في مهن مثل القانون والهندسة والطب يسير ببطء، بما نسبته 14% من المهندسين و 29% من الأطباء والجراحين في الولايات المتحدة. ولا يزال هناك ضمن المهنة الواحدة شرائح للنساء والرجال، وتتركز النساء في الشرائح ذات الأجور الأدنى. وحتى حين تتقارب معدلات العمالة بين النساء والرجال فإن عدداً أقل بكثير من النساء هن في مراكز إدارية. إذ تشكل النساء ما نسبته 13.4% من مجالس إدارة أكبر 500 شركة في الولايات المتحدة (كانت النسبة 9.5% عام 1995م)، وهي تقل عن ذلك في أوروبا (8% كمعدل وتتفاوت بين بلد وآخر) وفي اليابان (1%). والتقدم في هذا المجال بطيء بالرغم من أن بعض الشركات يسعى إلى سياسة تنويع لتمثيل النساء والأقليات.

التحصيل العلمي لم يحل كل المشكلات

ويعتبر التحصيل العلمي من أهم مقومات تمكين المرأة. وبات التقدم في هذا المجال يسبق التقدم في أمور أخرى، بحيث إن النساء يتخرجن بأعداد متزايدة على الرجال في الولايات المتحدة وأوروبا. وينعكس هذا التحصيل بشكل

يعتبر التحصيل العلمي من أهم مقومات تمكين المرأة. وبات التقدم في هذا المجال يسبق التقدم في أمور أخرى، بحيث إن النساء يتخرجن بأعداد متزايدة مقارنة بالرجال في الولايات المتحدة وأوروبا

واضح على عمل النساء. فالنساء اللواتي يحملن شهادات ازدادت نسبتهن في قوة العمل في الولايات المتحدة من 11.2% عام 1970م إلى 32.6% في 2004م، وزاد التفاوت في الأجور بين حاملات الشهادات الجامعية والثانوية. وتعتبر النساء المؤهلات في أوروبا أفضل اندماجاً في سوق العمل من الأقل تأهيلاً. فالنساء ذوات المهارات العالية كنّ، حسب تقرير للمفوضية الأوروبية عام 2001م، أبطال صنع الوظائف الجديدة، إذ أسهمن في صنع 60% من الوظائف بين 1995 و 2000م، خاصة في القطاعات التي تعتمد على التكنولوجيا العالية. لكن المشكلة تكمن في أن النساء يعملن عادة في وظائف أقل من مؤهلاتهن. فعلى سبيل المثال، شكَّلت نسبة خريجات الدكتوراة في أوروبا 43% من المجموع لعام 2004م، لكنهن شغلن ما نسبته 29% من الوظائف في حقول العلوم والهندسة، وعدد قليل منهن عمل على مستوى باحثات، بينما الأغلبية شغلن وظائف تقنية أقل شأناً (حسب تقرير المفوضية الأوروبية)، مما يجيز القول إن النساء يسعين إلى مهن لا تتناسب مع مؤهلاتهن للتوفيق بين المهنة والحياة الخاصة.

بين البيت و «البارت تايم»

ولا تزال مسؤولية الأولاد تقع على عاتق النساء بشكل عام، ورغم التحسن في مشاركة الرجال في البلدان الغربية إلا أنها لا تزال ثانوية. وما توفره الدولة والمجتمع من مساعدة في مجال الرعاية متفاوت جداً بين البلدان. فمن جهة، يزداد الدعم الحكومي للرعاية في البلدان الإسكندنافية وفرنسا، بينما يقوم بهذا الدعم القطاع الخاص بشكل أساس في إيطاليا وإسبانيا وألمانيا. ويزيد في الولايات المتحدة الاعتماد على العمالة المهاجرة للمساعدة المنزلية. ويتبين أن البلدان التي تتوافر فيها أفضل شروط الدعم العائلي، كالسويد، تتوافر فيها أيضاً أعلى معدلات العمالة النسائية كما وأعلى معدلات الولادة أيضاً.

ولضرورات التوفيق بين المسؤوليات المختلفة، تنتشر ظاهرة العمل الجزئي (بارت تايم) بين النساء في أوروبا، اللواتي يشغلن 80% من مجموع الأعمال الجزئية، وترتفع نسبة النساء اللواتي يعملن في أعمال جزئية بشكل مقلق في بعض البلدان الأوروبية. إذ تختلف الصورة بين بلد أوروبي وآخر: 64% من النساء العاملات في هولندا يقمن بأعمال جزئية، و 45% في بريطانيا و 37% في الدنمارك،



أرشيف المحترف السعودي

الخريجات الجامعيات أكثر عدداً من الخريجين

و 34% في ألمانيا، وفرنسا 25% وبلجيكا 17% وإيرلندا 19%. هذه الظاهرة لا تشغل المجتمع الأمريكي بالدرجة نفسها، حيث 26% من النساء عملن في أعمال جزئية في عام 2004م مقابل 11% من الرجال. ومعظم النساء الأمريكيات يقمن بأعمال جزئية مع اقتراب سن التقاعد، بينما تعمل النساء الأوروبيات في أعمال جزئية في سنوات رعاية الأطفال. والنقاش مستمر حول هذه الظاهرة بين المحبِّذ لها كحالة للتوفيق بين العمل والمنزل، وبين من ينتقدها بشدة باعتبارها تعيد النساء إلى الوراء وتُسائِل شرعية العمالة النسائية، وبين من يرى العمل الجزئي إجراءً مؤقتاً يتيح للنساء تجنب وقف عملهن المهني أثناء الأمومة. إن مشكلة هذه الظاهرة، كما يراها البعض، تكمن في طبيعة العمل الجزئي، الذي غالباً ما يكون في أعمال تفتقد إلى الأمان الوظيفي، وتترتب عليه نتائج يصعب على العاملين التحكم بها. فهم لا يستطيعون أن يناقشوا وضعهم مع أرباب العمل، ويتقاضون أجراً منخفضاً، وتزيد عليهم أعباء العمل، ويفتقدون احتمال الترقي وغيره. هذه الأمور جعلت البعض يصف العمل الجزئي كأحد المصادر الرئيسة للتمييز ضد النساء. (دراسة المرأة والعمل والعمالة في أوروبا).

ختاماً، لا بد من الإشارة إلى أن ترك سوق العمل يقرر إنابة عن المجتمع، بحيث يكون النجاح في العمل المقياس الأساس لقيمة الفرد ولتحقيق المكانة والثروة، يثير أيضاً تساؤلاً حول ما قد يؤدي إليه ذلك من نشوء ثقافة أكثر أنانية، ما لم يدرك المجتمع أن التحوّل الذي حصل في النقلة النسائية إلى سوق العمل يحتاج إلى احتضانه مجتمعياً لكي تبقى الرعاية من خصاله الرفيعة أيضاً.

2 المرأة في الاقتصاد السعودي الضرورات، المعوقات، الإنجازات والآفاق

صفية الجفري

يبلغ عدد النساء في المملكة العربية السعودية نحو نصف عدد السكان (49.9% تحديداً)، أما إسهام المرأة في سوق العمل السعودي فقد بلغ ما نسبته 10.3% في عام 2004م. وقد وصل هذا الإسهام إلى هذه النسبة بعد جهود تنموية، خاصة في مجال التعليم، إذ لم يكن يتجاوز في العام 1992م 5.4%، حسبما جاء في تقرير الأهداف التنموية للألفية الذي أعدته وزارة الاقتصاد والتخطيط بمشاركة برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

وفي قراءة لهذا الارتفاع، تقول الأستاذة نشوى طاهر، إحدى أول سيدتين انتخبتا في مجلس إدارة الغرفة التجارية في جدة: «إن هذا الإسهام، رغم ارتفاع نسبته في السنوات الماضية، إلا أنه يبقى من دون أثر حقيقي في الاقتصاد السعودي. وإن الأثر المرجو كحد أدنى يتحقق بارتفاع هذه النسبة إلى 27% وفقاً لإحصائية كانت قد أعدتها في إطار برنامجها الانتخابي في غرفة تجارة جدة.

فمقابل الارتفاع النسبي لهذه المشاركة، هناك ثلاثة أمور لا بد من الإشارة إليها:

أولاً: تقدم ملحوظ في مجال التعليم (إحصائياً)، إذ سُدَّت الفجوة بين الجنسين في مؤشرات القيد، وذلك في كل مراحل التعليم العام والعالي، وبلغ معدل النمو السنوي لإجمالي قيد البنات في جميع مراحل التعليم نحو 7.1% للفترة الواقعة ما بين العامين 1975 و 2005م، في حين بلغ هذا المعدل عند البنين 5%. لا بل إن عدد الطالبات في التعليم العالي -الدبلوم الجامعي والدراسات العليا- قد زاد على الطلاب. وبلغت نسبة الخريجات 56.5% من إجمالي عدد الخريجين، حسبما جاء في خطة التنمية الثامنة (2005 - 2009م).

ثانياً: تكدس قوة العمل النسائية في قطاع التعليم، حيث بلغت نسبة العاملات فيه 82% من مجمل العاملات في كافة القطاعات، حسبما جاء في دراسة أجراها مركز «رواج» للاستشارات والتدريب ونشرها موقع الإسلام اليوم بتاريخ 2006/5/18م.

ثالثاً: ضعف مخرجات التعليم وعدم مواءمتها لسوق العمل، وتفشي البطالة بين خريجات الجامعات والمعاهد لتصل إلى الثلثين تقريباً، كما جاء في دراسة لأكاديميين سعوديين في مجال الاقتصاد والتعليم ضمن مشروع «آفاق» لتطوير التعليم الجامعي.

التمركز.. قضية مشتركة مع الذكور

إن قراءة هذه المعطيات مجتمعة تكشف لنا خللاً ظاهراً. إذ إن ارتفاع نسبة الخريجات يكاد يكون معدوم الأثر (إحصائياً)، ليس فقط لجهة انخفاض نسبة المشاركة في سوق العمل، ولكن لمحدودية قطاعات هذه المشاركة من جهة، حيث تتركز في قطاع التعليم كما قدَّمنا، ثم قطاع الصحة والعمل الاجتماعي (6.1%)، والإدارة العامة (4.4%)، وعدم جودة مخرجات التعليم من جهة أخرى، وتركزها في الأقسام النظرية دون التطبيقية. حيث إن خريجات أقسام «التربية والتعليم» و «العلوم الإنسانية» يشكلن 88% من مجموع الخريجات.

والجدير بالذكر أن هذه المشكلة ليست خاصة بالإناث. فالصورة لا تختلف مع الذكور رغم الاختلاف في مواضع التمركز. فحصة قطاعات الخدمات هي المهيمنة في استحواذها على النسبة الكبرى من المشتغلين الذكور، مثل الإدارة العامة (46.82%) والتعليم (14.2%).

وتقول الدكتورة بسمة عمير، مديرة مركز السيدة خديجة بنت خويلد لصاحبات الأعمال بجدة، في حديثها إلى «القافلة»، إن الغرفة التجارية في جدة وصندوق تنمية الموارد البشرية يحاولان أن يغطيا هذا الخلل بالبرامج التدريبية، الأمر الذي يشكِّل عبئاً إضافياً على الحكومة. فالقطاع الخاص لا يستطيع تعيين المتخرجين حديثاً إناثاً أو ذكوراً لحاجتهم إلى التأهيل من حيث التقنية وسلوكيات العمل وغير ذلك. وإضافة إلى ما تقدم، هناك مشكلات أخرى مثل عدم توافر مواصلات عامة ملائمة بالنسبة إلى الإناث. مما يجعل توفير المواصلات من قبل الموظفة يستنزف الراتب المتدني الذي يدفعه القطاع الخاص.

وتؤكد الدكتورة عمير أن الحل لا يقتصر فقط على إقبال الطالبات على الأقسام التطبيقية، بل في تحسين نوعية التعليم بحيث يصبح قادراً على تنمية مهارات التفكير لدى الطالب ويدربه على حل المشكلات، وعلى التمكن من القراءة الواعية للمعلومات، وكيفية استخراجها.

من مساعي توسعة الفرص والمجالات

شهدت السنوات الأخيرة سلسلة خطوات تمثلت في عدد من القرارات الحكومية الجديدة الهادفة إلى معالجة مواضع



منال الضويان

الخلل التي أشرنا إليها. ومن هذه الخطوات، على سبيل المثال، انطلاق مشروع «آفاق» لتطوير التعليم الجامعي، والارتقاء بالكفاءات الوطنية لكي تلائم احتياجات سوق العمل كما ذكر الدكتور خالد السلطان، المشرف على المشروع ومدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

وفي الإطار نفسه، يبرز قرار مجلس الوزراء رقم 120 بتاريخ 1425/4/12هـ كأحد أهم القرارات في هذا الصدد. إذ يشتمل على تسعة إجراءات لتوسيع فرص ومجالات عمل المرأة السعودية، ومنها الإجراء الذي ما زال يثير الجدل في المجتمع السعودي، والقاضي بقصر بيع المستلزمات النسائية على النساء بضوابط شرعية. ويقول وزير العمل، الدكتور غازي القصيبي، في حديث لجريدة «المدينة» (2006/7/22م): «إن هذا القرار لم يفهم بصورة صحيحة رغم جهود وزارة العمل في إيضاحه وبيان أن تطبيقه هو وفق الضوابط المقررة وبما لا يتعارض مع المثل والقيم والثوابت التي يتمسك بها المجتمع السعودي».

وأضاف الوزير القصيبي «إن أهم العقبات هي تغيير نظرة المجتمع إلى عمل المرأة، وأن قرارات قد صدرت عن الحكومة تحدد الاشتراطات والبيئة المناسبة لعمل المرأة، ومنها قرار مجلس القوى العاملة (سابقاً) بشأن مجالات وضوابط عمل المرأة في المملكة. والذي يتلخص في تحديد ثلاثة مجالات رئيسة لعمل المرأة، وهي التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية، وذلك على سبيل التقرير وليس الحصر. لكون المجالات المذكورة قد طرقتها المرأة فعلاً، وتستوعب في الواقع النسبة الغالبة من النساء العاملات في المملكة».

إلى ذلك، تتضمن خطة التنمية الثامنة تأكيداً على أن الاستثمار يشكِّل أحد المنافذ المهمة نظراً لمحدودية فرص التوظيف للعمالة الوطنية في القطاع الحكومي لتشبعه. ومع تزايد عدد الخريجات السعوديات من مختلف نظم التعليم والتدريب يبدو الاستثمار أحد المخارج أمام المرأة السعودية ومجالاً ملائماً لعدد كبير من السيدات المقتدرات مادياً.

15 مليار ريال.. في انتظار استثماراتهن

يضمن الاستثمار التمتع بكافة ميزات مشاركة المرأة في سوق العمل على صعد إثبات الذات وتحقيق مكانة اجتماعية جيدة، بالإضافة إلى سهولة الجمع بين المشاركة في التنمية والوفاء الأفضل نسبياً بمسؤوليات المرأة المنزلية.

وعمل المرأة في الاستثمار قد يضيف إلى الناتج المحلي الإجمالي ما يضيفه أي نوع آخر من مشاركات المرأة في التنمية، أما الاستثمار فبجانب ما يضخه من أموال في قنوات الاقتصاد المختلفة، فهو يوفر أيضاً فرصاً للعمل تضاف هي الأخرى إلى الناتج المحلي الإجمالي. من هنا، كان اهتمام خطط التنمية الأخيرة بتشجيع مثل هذا النوع من المشاركة وإتاحة الفرصة للمرأة لاستثمار مدخراتها

ازداد إقبال سيدات الأعمال السعوديات في المملكة خلال السنوات القليلة الماضية على الاستثمار في مختلف النشاطات الاقتصادية

الكبيرة التي تقدر بنحو 15 مليار ريال مجمدة في البنوك ومعطلة عن استخدامها في الاستثمار.

وقد ازداد إقبال سيدات الأعمال السعوديات في المملكة خلال السنوات القليلة الماضية على الاستثمار في مختلف النشاطات الاقتصادية. وتشير البيانات المتاحة إلى أن عدد السجلات التجارية المملوكة لأسماء نسائية تزيد على 22500 سجل تجاري تمثل نحو 4.7% من عدد المنشآت المسجلة في الغرف التجارية الصناعية في المملكة. وتغطي هذه السجلات أنواعاً متعددة من النشاطات الاقتصادية بما فيها نشاطات كانت حكراً على الرجال في أوقات سابقة كنشاط المقاولات والبناء، كما تشمل أيضاً نشاطات صناعية وزراعية. وفي المدة الأخيرة، أشارت أيضاً بيانات وزارة التجارة والصناعة إلى أنه خلال العام 2004م تم قيد 1565 سجلاً تجارياً نسائياً في نشاطات تجارية متنوعة على مستوى المملكة.

وتمثل هذه السجلات منشآت صغيرة ومتوسطة الحجم، وهي من المشروعات المفضلة كقنوات استثمارية لسيدات الأعمال السعوديات. وتشكِّل النشاطات التجارية الثلاثة الأولى وهي تجارة الجملة والتجزئة، والمواد الغذائية، والملابس الجاهزة والأقمشة، ما يقارب 80% من السجلات التجارية المقيدة.

ولعل صدور قرار مجلس الوزراء (120) الذي يوسِّع مجالات مشاركة المرأة. قد يجعل الإحصاءات التي تأتي من بعده أقرب إلى الدقة إذا ما نجحت الخطط التنموية بالنسبة للمرأة في تحقيق أهدافها.

المشروعات الصغيرة.. إصلاحات راسخة

باتت المشروعات الصغيرة تشكِّل جزءاً مهماً من اقتصاد الدول المتقدمة، إذ تمثل 50.1% من صادرات الولايات المتحدة، و 88% من صادرات اليابان (المؤسسة الدولية للتمويل تقرير 2006م).

وفي السعودية، حيث تشكِّل المشروعات الصغيرة 80% من حجم السوق، بدأت تظهر بالفعل توجهات فاعلة لدعم هذه المشروعات عبر التأهيل والتدريب وحاضنات الأعمال، تشارك فيها مؤسسات الدولة والمجتمع المدني معاً.

فلدى مركز السيدة خديجة بنت خويلد لدعم صاحبات الأعمال، حاضنات أعمال مجهزة تقنياً، ويستقبل المركز طلبات الراغبات بإنشاء مشروعات صغيرة، ويتم تدارس الفكرة معهن، ثم توجيههن إلى مكاتب استشارية متخصصة لعمل دراسات الجدوى بتكلفة منخفضة كثمرة للتعاون بين المركز وهذه المكاتب. وتقدم الغرفة كما تذكر الدكتورة بسمة عمير الدعم لهذه المشروعات. وتتعاون في هذا الإطار مع مؤسسات المجتمع المدني التي تدعم المشروعات الصغيرة، كالبنك الأهلي، وشركة صافولا، وصندوق عبداللطيف جميل.

ويتحدث مدير عام برامج عبداللطيف جميل لخدمة المجتمع، إبراهيم بن محمد باداود، عن وجود خطة لاستيعاب أكثر من 20 ألف شاب وشابة في برنامج التدريب المنتهي بالتوظيف. ويشير إلى أن 50% من نشاط البرنامج تحوز عليه السيدات، حيث حصلت حتى الآن حوالي 528 سيدة على تمويل من هذا البرنامج، في الوقت الذي يخطط فيه المسؤولون في البرنامج لكي تستفيد منه نحو 10 آلاف سيدة خلال العام المقبل. ونقرأ في الموقع الإلكتروني لبرامج عبداللطيف جميل لخدمة المجتمع قصصاً لنساء سعوديات استثمرن قدراتهن في الأعمال الفنية في مشروعات صغيرة بدعم من البرنامج، بقروض ميسرة بدون فوائد. ويذكر الموقع أن 271 فتاة سعودية قد التحقن بدورات صندوق التأهيل المهني والحرفي منذ بدأ عمله في يوليو 2003م، والتي بلغت حتى الآن 34 دورة في مجالات تمس بشكل مباشر حاجة الفتاة السعودية للعمل المناسب.

المرأة والاقتصاد من الظل إلى النور

هناك مسارات كثيرة لمشاركة المرأة الفاعلة في العملية التنموية. أداء الواجبات الأسرية أحد هذه المسارات، في ظل ثقافة دينية ومجتمعية تعظِّم دور الأمومة، وتفرض على الزوج أن ينفق على زوجته، والعمل المنزلي المدفوع الأجر عن بعد أو عبر المشروعات الصغيرة مسار آخر، والعمل خارج المنزل مسار ثالث، والمشاركة في فعاليات المجتمع المدني مسار رابع.

هناك معوقات كثيرة وارتباك في التعامل مع معطيات اقتصادية جديدة على البلاد كما في تعامل المرأة

هناك مسارات كثيرة لمشاركة المرأة في العملية التنموية تبدأ بالواجبات الأسرية وتصل إلى فعاليات المجتمع المدني

السعودية مع الأسهم، على سبيل المثال، إذ نجد مشاركة مكثفة للمرأة في سوق الأسهم، وقد جاءت نتائج رصد هذه المشاركة سلبية -وفقاً لدراسة أعدها مركز قيمة مضافة للاستشارات في الرياض- إذ تبين أن 95% من المتعاملات في سوق الأسهم ينتهجن المضاربة بدلاً من الاستثمار، مما يدل على تدني الوعي الاستثماري. (عرض للدراسة. سحر رملاوي. جريدة الرياض، 25 مايو 2006م)، لكن هناك أيضاً همة وحراكاً حقيقيين لأجل التوعية وتجاوز العقبات. جائزة «إبداع» للعمل المنزلي التي نظَّمها مركز السيدة خديجة بنت خويلد مثال حي على ذلك. حيث كان سبباً في بروز بعض نشاطات العمل المنزلي النسوي، التي كانت في حيز الظل، إلى العلن، وشجعت العاملات من المنازل ضمن (اقتصاد الظل) على الاتصال بالمركز، وتسجيل نشاطاتهن، كما تذكر الدكتورة بسمة عمير. وقد فازت بالجائزة 37 سيدة من أصل 77 سيدة بـ 309 منتجات وفق لجنة التحكيم المكونة من متخصصات وأكاديميات.

المستقبل.. القوانين وحدها لا تكفي

تعد السمة الأبرز في قوة العمل النسائية هي كونها من الفئات الفتية عمراً (25-34 سنة) مما يشير إلى إمكانات تحقيق زخم أكبر في وتائر النمو المستقبلية لمعدلات النشاط الاقتصادي للنساء مقارنة بالذكور. إذ إن معدلات النشاط الاقتصادي للذكور هي أساساً عالية جداً للفئة العمرية 25-54 سنة، في حين أن مشاركة النساء الحالية في النشاط الاقتصادي متدنية، مما يشير إلى أن احتمالات الزيادة الكبيرة وإمكاناتها هي أعلى عند النساء. وإذا أخذنا في الحسبان صحة الفرضية التي تقول: إن التعليم مفتاح العمل، وبوجود مؤشرات تؤكد أن الزخم الكبير في معدلات النمو يكمن في مشاركة الإناث في النظام التعليمي، فإن هذا يعني أن وتيرة العرض من القوى العاملة خلال المدة المقبلة ستكون عالية في صفوف الإناث. وذلك إذا ما أزيلت العوائق المجتمعية والتشريعية التي تحول دون زيادة هذه المشاركة.

والأرقام في علاقة المرأة السعودية بالاقتصاد، رغم أهميتها، ليست المؤشر الوحيد على التنمية كفعل حضاري مجتمعي ما دامت هناك إرادة حقيقية. يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي: «إن عالم الاقتصاد ليس عالم الكميات وعالم الأرقام إلا في الرتبة الثانية، أي بعدما تبعث فيه الإرادة الحضارية الحركة والحياة».

هذه الإرادة نجدها حاضرة في إقبال الفتيات السعوديات على العمل، فقد تقدمت إلى مركز السيدة خديجة بنت خويلد -في جدة- خمسة آلاف فتاة سعودية لشغل وظيفة بائعة كان المركز قد أعلن عنها.

كما نجدها حاضرة في الوعي والهمة اللذين أثمرا خوض المرأة السعودية لأول مرة في تاريخها انتخابات الغرفة التجارية بجدة، على سبيل المثال. ولا يمكن تجاهل أثر هذا التوجه على العملية التنموية. وفي هذا الصدد، تقول الدكتورة بسمة عمير: «إن حصول المرأة على حقوقها يلزمه مثابرة منها، إذ لا أحد يرفض أن تتقدم المرأة، لكن هذا التقدم لن يحصل إن لم تعمل المرأة على تحصيله عزماً ومتابعة».



المحترف السعودي

قول في مقال

نعمة الوضع الوسط..

لا تزال التحولات التي طرأت على الفكر والثقافة خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين موضع تقويم ونقد سلباً أو إيجاباً.
الكاتبة رنا المسفر* تتناول هنا ما تسميه «الجيل الوسط» من المفكرين الذي يعمل اليوم على متابعة المسيرة التي بدأها الجيل السابق، والاختلافات ما بين هذين الجيلين لجهة المسائل المتناولة واللغة والوقع.

أجرت الصحافية البريطانية جين ديفرسون مجموعة من المقابلات مع المراهقين في بريطانيا في يناير من عام 1963م، بتكليف من إحدى المجلات النسائية. وكشفت المقابلات عن مجموعة من السمات التي تجمع بين المراهقين وقتذاك، وبينما اعتبرت ديفرسون النتائج التي توصلت إليها ظاهرة اجتماعية تستحق مزيداً من الدراسة والتحليل، رفضت المجلة نشرها واعتبرتها غير مناسبة لسياستها التحريرية. عندها، عملت ديفرسون مع الصحافي تشارلز هامبلت على نشر بحثها في كتاب، سمته «الجيل إكس». ومنذ ذلك الحين، شاع استخدام هذا المصطلح، وأصبح يطلق على الجيل الذي ولد بين العامين 1960 و1981م، وبلغ مراهقته أو شبابه في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي. وهو الجيل نفسه الذي عاش السنوات المبهمة التي انتقل فيها العالم من زمن الاستعمار والإمبريالية إلى العولمة. هو جيل ضائع بين جيلين، الجيل الأكبر الذي اختبر رخاء ما بعد الحرب العالمية، والجيل الأصغر الذي اختبر ترف ثورة الدوت كم. الجيل إكس، هو الجيل الذي حمّله هامبلت وديفرسون، في كتابهما مسؤولية قيادة العالم في العقود الأخيرة من القرن العشرين إلى القرن الذي يليه.

المقال الذي يعرّف «بالجيل إكس» في موسوعة الإنترنت الحرة (الويكيبيديا) يشير إلى أن محتوى المقال متعلق بالولايات المتحدة الأمريكية بشكل رئيس، وأن المعلومات الواردة فيه قد لا تكون ممثلة لوجهة نظر عالمية بهذا الشأن. وإن حاولت أن تبحث عن «الجيل إكس» العربي على صفحات الإنترنت العربية، فقد لا تجد شيئاً. ولكنك قد تجد من يتحدث عن «الجيل إكس» العربي دون أن يستخدم المصطلح الغربي الذي أتت به ديفرسون، وإنما يصفه بمرارة حائرة، هي عربية بجدارة. في مقال الدكتور أحمد خالد توفيق بعنوان «لعنة الوضع الوسط» يقول الكاتب في معرض حديثه عن الجيل الذي أتى في الزمن الوسط على حد تعبيره: «ماذا عن الزمن الوسط؟.. لست في زمن جيفارا والقومية العربية ومؤتمر باندونج ومظاهرات الشباب واجتماعات المثقفين مع سارتر.. لقد ولى هذا الزمن، لكنك كذلك لا تبتلع فكرة العولمة التي هي الأمركة بمعنى آخر... فأين تقف بالضبط؟».

الاتجاهات جديدة.. واللغة أيضاً

أين يقف هذا الجيل بالضبط؟ أو لنكن أكثر تحديداً. أين يقف مفكرو هذا الجيل بالضبط، الذين ربما لم يوصفوا

* كاتبة سعودية

قط قبل اليوم بأنهم مفكرون؟ أين يقف د. أحمد خالد توفيق، ود. أحمد عبدالله، وأشرف إحسان فقيه، ود. عبدالله البريدي وغيرهم كثيرون ممن «ابتلوا» على حد تعبير الكاتب بلعنة الوضع الوسط؟ هم في نهاية الأمر ليسوا أسماء لامعة مثل تلك التي عاشت في الذاكرة، لأن الموقف الفكري في ذلك الزمن (الزمن الحافل بالثورات وتحديد الاتجاهات وتوحيد الصف أمام الأعداء) كان ثورة هائلة لا تخمد أوارها. قد يمضي زمن طويل قبل أن تلمع أسماء هؤلاء وقد يمضون حياتهم دون أن يحظى الواحد منهم بشهرة تصب في مجرى نهر التمجيد الذي تمتع به الجيل الأول من المفكرين.

لن تجد من مفكري الجيل الوسط من يحدثك بلغة فخمة مصقولة عن تراث الأمة العربية أو عن الحداثة والمعاصرة أو عن التعارض بين الإبداع والمجتمع. بل ستجدهم يحدثونك عما تبثه الفضائيات العربية والأجنبية، عن الصداقة على الإنترنت، عن الأستاذ والمدرسة، عن رمضان وعمرو خالد، عن ماكدونالدز والوجبات الأمريكية السريعة، ومواضيع أخرى كثيرة قد يكون من بينها تلك المساحات التي يطرقها المفكرون الكبار.

ولكن لغة الخطاب الفكري لدى مفكري جيل الوسط تمسك مباشرةً، بلغة سهلة، ومفردات أسهل.. ليس من الضروري أن تكون قارئاً مثقفاً كي تفهمها، وليس من الضروري أن تكون صاحب قضية لتعتنقها أو لتهتم بقراءتها.

أفكار الجيل الوسط تحرِّك المياه الراكدة، ولكنها لا تغير من طبيعتها تغيراً ظاهراً لتصبح إعصاراً أو فيضاناً. هي أفكار هادئة وواقعية وعملية. قد يظن البعض، لبساطة الطريقة التي كُتبت بها، أنها أفكار أتت عفو الخاطر دون تحليل أو تفكير حقيقي. بينما قد يعتنقها البعض بسهولة ومن دون أن يفرق بينها وبين أفكاره، ومن دون أن يدرك حقيقة كونها أفكاراً مجردة وعميقة، على عكس تلك الأفكار التي كتبها ويكتبها المفكرون الأوائل من دون أن يؤطروها في أمثلة حية وقريبة من حاضر القارئ. ولذلك نجد أن الهالة التي تحيط بهؤلاء المفكرين من الجيل الوسط، مع من يقرأ لهم أو يستمع إليهم، هي هالة قرب وود، لا هالة هيبة ورهبة. ولولا بعض من إدراك، وكثير من حياء، لفكر البعض منا أنه قد يكون منهم، إن بذل قليلاً من الجهد، في كتابة أفكاره ونشرها!

قدرة على المواءمة والانفتاح

ومع ذلك، ففكر الجيل الوسط هو حائط الصد الذي سيحتمي به جيلنا، الجيل الذي ولد في الثمانينيات والتسعينيات وما بعده من أجيال، من الرياح القاسية الموجِّهة التي تود أن تقتلع ثقافتنا وهويتنا، كما تقتلع غيرها من الثقافات دون تمييز. ذلك أنه جيل تربى على تراث تركه الصف الأول من المفكرين، وهو تراث لا يمكنك تجاهل تأثيره في من نشأ عليه. تراث ينبض إسلاماً وعروبة وقومية واتجاهات أخرى كثيرة، تصبح جزءاً من تكوين من تربى عليها في صغره.

الجيل الوسط استطاع في الوقت نفسه أن يقدم منتجات فكرية جديدة، تختلف في طبيعتها وشكلها وتوجهها عن تلك التي تربى عليها، وتجمعها سمات قد يكون من بينها الانفتاح من دون تعصب على جميع الثقافات الأخرى ومن بينها الثقافة الأمريكية، ومقاومتها للجزء الذي تحفل به كتابات الجيل الأكبر أمام كل الظواهر التي تأتي بها العولمة وثورة المعلومات والاتصالات، وقدرتها على المواءمة المعتدلة بين القديم والجديد وجمعها في قالب معاصر مواضيع مختلفة من ذلك الزمن، ومن هذا الزمن.

جيل الوسط من المفكرين يعيش في هدوء، يحقق نجاحات مرضية في الطرق التي اختارها لحياته والقناة التي ارتضاها لواقعه، ويؤثر على شريحة واسعة من القرَّاء الذين وُلدوا في زمن ليست القراءة من أعظم إنجازاته.

وقد يمضي بعض هؤلاء المفكرين، وليس الكل، حياتهم بأكملها في هدوء، كعصر ضاع بين صباح ومغرب، ولكنهم بالتأكيد، خلقوا في فكر من يقرأ لهم جمالاً لن يزول أو يتلاشى بسهولة.. جيل الوسط، يستحق تحية إكبار، وعرفان بالجميل، وامتنان عميق وحقيقي لما يضيفه إلى حياتنا من غنى، في ظل دنيا عامرة نعيشها، فيها الكثير والكثير.. ولكننا نحتاج فيها مع ذلك إلى فكر عربي متنور ينير لنا الطريق، وإن طال وعسر.

أيتها الطاقة البديلة.. أين أنت؟



Corbis

منذ أن بدأ العمل ببروتوكول كيوتو في العام 1995م، ووتيرة الاهتمام بالبحث عن مصادر للطاقة النظيفة في تصاعد مستمر. فتعددت الأبحاث التي لم تترك شيئاً على وجه البسيطة إلا وتفحصت إمكانية الاستفادة منه كمصدر للطاقة النظيفة، وشملت هذه الأبحاث الرياح والطاقة الشمسية والحرارة الجوفية في باطن الأرض وصولاً إلى الأعاصير. غير أن ما يميز المرحلة الحالية هو اقتناع معظم الحكومات والشركات الكبرى ومنها شركات النفط بأهمية النجاح في هذا المسعى.. فما كان حلماً مثالياً أصبح اليوم يمثل فرصاً استثمارية.

فريق القافلة، مواكباً «مؤتمر آلية التنمية النظيفة» الذي يعقد في الرياض، يلقي الضوء على المتغيرات في هذا الاتجاه.

تزاحمت خلال العقود الأخيرة أفكار ودراسات كثيرة في شأن الطاقة البديلة، حقق بعضها درجات مختلفة من النجاح، كالتحول الكبير نحو الاعتماد المتزايد على الغاز الطبيعي بوصفه طاقة أنظف، وتحويل الطاقة الشمسية لطاقة بديلة، واستغلال الطاقة المنتجة بواسطة الرياح، وطاقة الحرارة الجوفية في باطن الأرض.

إلا أن هذه البدائل المعروفة كان بجانبها عشرات المحاولات التي لا تعد ولا تحصى في هذا الإطار، منها الاستفادة من طاقة أمواج البحر، وطاقة المد والجزر، وكذلك الطاقة الحرارية في أعماق المحيطات،ومنها أيضاً ما طرحه المهندس الكندي لويس ميشود، حول تسخير طاقة الأعاصير، والتي لم تخف قدراتها على الجنس البشري في السنوات القليلة الماضية. وتقوم فكرة ميشود على الدراسات التي تشير إلى أن كمية الطاقة التي يحتويها إعصار واحد من الأعاصير الكبيرة تفوق كمية الطاقة التي يستهلكها الجنس البشري بأكمله خلال سنة واحدة فقط.

ويبدو أن هذه المحاولات، ومحاولات أخرى تأتي معها أو بعدها، ستجد أخيراً مكاناً ملائماً في قائمة الفرص الاستثمارية التي تجذب أموال المستثمرين، نتيجةً لموجة وعي بيئية بدأت تغمر العالم الصناعي، وتنبهه إلى أن صداقة البيئة لا تقوم فقط على النوايا الطيبة والأحلام النبيلة، بل قد تكون أيضاً على المنفعة المتبادلة، وتحقيق الأرباح المادية، وإن يكن على المدى البعيد. وهذا المدى البعيد هو ما كان يبشر به أنصار البيئة منذ عقود، إلا أن



«البعيد» أصبح أكثر قرباً مما كانت الدول والشركات الكبرى تتصور. ففي أغسطس من العام الجاري، أصدرت الولايات المتحدة قانوناً عُرف برقم «15-23» لتشجيع إنتاج الطاقة المتجددة، وذلك بواسطة تقديم حوافز لاستخدامها، وزيادة فاعلية الطاقة الخضراء بما في ذلك استخدام الطاقة الشمسية والطاقة المنتَجة بواسطة الرياح وطاقة تيارات المحيطات البحرية، والوقود الذي يعمل على مزيج من الديزل، والزيت المستخرج من الخضراوات، كالذرة.

والأهداف الرئيسة لهذا القانون أتت لتتضمن وضع أهداف لشركات المرافق العامة لتنويع مصادر طاقتها وذلك بواسطة تضمين نسب متزايدة من الطاقة المتجددة، ابتداءً بخمسة في المئة في نهاية السنة المقبلة، وانتهاءً بخمسين في المئة في نهاية العام 2030م. أيضاً، إعطاء الزبائن من الشركات الكبرى الحق في إنتاج طاقتهم، وإعادة بيع الزيادة في الطاقة للمرافق الأخرى التي تريد ذلك، وأخيراً تشجيع المواصلات التي تستخدم الطاقة النظيفة، وفرض استخدامها بشكل أو بآخر على كل المؤسسات الحكومية أو تقديم أسباب مقنعة في حالة عدم استخدامها.

زيادة أسعار النفط بصورة حادة لا بد أن تؤدي، عاجلاً أم آجلاً، إلى التفتيش عن مصادر طاقة جديدة

موقف شركات النفط

كان الكثير من المحللين في مجال الطاقة يعتقدون أن الشركات النفطية تعارض سياسات توفير الطاقة، خاصة النفط، لأن ذلك سيقلل الاعتماد على هذه المادة ويخفض أسعارها، وبالتالي سيخفض أرباح هذه الشركات، خاصة العملاقة منها. إلا أن وصول إنتاج النفط إلى حدود طاقته القصوى في العالم جعل هذه الشركات ترى أن زيادة أسعار النفط بصورة حادة لا بد أن تؤدي، عاجلاً أم آجلاً، إلى التفتيش عن مصادر طاقة جديدة. ومن ناحية ثانية، فإن بإمكان هذه الشركات تحويل النفط الخام إلى مواد كيميائية بعد معالجتها في المصافي ذات الكفاءة والتكنولوجيا الجديدة بحيث تستطيع بيع برميل المنتجات النفطية رفيعة المستوى بأضعاف ثمن برميل النفط الخام مهما ازداد سعره العالمي. وهي تملك من رأس المال ما هو كافٍ لبناء معامل ومصافي التحويل الجديدة. فليس هنالك، إذن، خسارة على الأقل على المدى المتوسط أو المدى الطويل، بل هناك دخول في صناعات جديدة مربحة وعدم وقوف في وجه تيار الطاقة المتجددة الذي بدأ ولو بخطوات قصيرة اليوم، ولكنها ستكبر أكثر بمرور الوقت.

وقد أعلنت شركتا نفط عالميتان هذه السنة عن استثمارات في حقول «الطاقة البديلة» ولو بنسب قليلة. فأعلنت «برتيش برتوليوم» بأنها ستنفق 8 مليارات دولار على هذه الطاقة خلال العقد القادم. أما شركة «شل» فستنفق مليار دولار على الدراسات المتعلقة بالطاقة البديلة خلال السنوات الخمس القادمة. وبالطبع، تظهر هذه الأرقام أن الاستثمار في حقلي البحث عن النفط والغاز أكبر بكثير من أي استثمار في أيّ حقل آخر. ولكن، لابد من التذكير بأن العالم بحاجة إلى خمسين في المئة زيادة في الإنتاج على النفط بحلول 2030م، وهو أمر شديد الصعوبة ضمن المعطيات الحالية للصناعة النفطية.

دور ظاهرة الاحتباس الحراري

وهنالك أسباب أخرى للبحث عن الطاقة البديلة أو «الطاقة الخضراء» تتصل بظاهرة «الاحتباس الحراري» التي تعتبر مهمة وإن لم يتفق العلماء على مدى تأثيراتها تماماً. ويقول أحد العلماء الذين لا يبالغون في التخويف من آثار هذه الظاهرة إن حساسية مناخ الكرة الأرضية ستزيد ما بين 1.5 و4.5 درجة مئوية، إذا تضاعف حجم ثاني أكسيد الكربون المنبعث من المواد القابلة للاشتعال كالفحم والنفط مثلاً.

وقد يفسر هذا عدة كوارث طبيعية، مثل ظاهرة أمواج «التسونامي» التي حصلت في جنوب شرق آسيا، وإعصار «كاترينا» الذي وقع في الولايات الأميركية الجنوبية، إذ أدى زلزال في البحر بسبب ارتفاع الحرارة بصورة غير متوقعة إلى تدفق ملايين من أطنان المياه على شواطئ تلك المناطق فعاث بها فساداً ودمر منشآتها وقتل وشرد الآلاف من القاطنين بقرب شواطئها.

ولم تكن نتائج هذه الكوارث الطبيعية محصورة فقط بالأذى الذي سببته والخسائر المادية والإنسانية التي أدت إليها، بل تعدتها لتؤثر على نواحٍ كثيرة كان منها أداء الشركات الكبرى وتوجهاتها. وكمثال، نجد أن شركة «ري» السويسرية للتأمين ولاعادة التأمين، والتي تُعتبر الآن من كبرى شركات التأمين وأكثرها شهرة، تقول إن قطاع التأمين البيئي في تزايد مستمر، فبعد أن كانت قيمته تصل إلى ثمانية مليارات قبل أعوام قليلة، وصلت قيمته في العام الماضي إلى 40 مليار دولار. والتأمين البيئي يمكّن شركات الطاقة والمزارعين والعاملين في مجالات تعتمد على الطقس أو المناخ (أي 30 في المئة من مجمل الاقتصاد الأمريكي كمثال) بأن يحدّوا من خسائرهم في حال الجفاف أو زيادة درجات الحرارة العالية. ويقول رئيس فريق الشركة التي تعمل في هذا المجال: «كلما كانت هناك مخاطرة فإن هناك فرصة أيضاً». ولكن في الوقت نفسه، فإن هؤلاء الذين يلجأون إلى خدمات التأمين البيئي الآن يضطرون إلى دفع مبالغ أكثر بكثير من تلك التي كان عليهم دفعها قبل سنوات ماضية، فهي سوق رابحة لشركات التأمين أيضاً.

بروتوكول كيوتو.. المنعطف التاريخي

إلا أن الخطوة الرئيسة التي يجب أن نتوقف عندها، والتي كانت منعطفاً تاريخياً في تحول الشركات والدول الصناعية نحو سياسات صديقة للبيئة، هي تلك التي خطتها الدول الأعضاء في الأمم المتحدة عام 1990م في مدينة كيوتو اليابانية، وذلك عبر عقد مؤتمر للبحث في شأن تخفيض ظاهرة الاحتباس الحراري، وجرى في نهايته التوصل إلى بروتوكول أو اتفاقية كيوتو التي تعهدت بواسطتها الدول الصناعية بتخفيض نسبة انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون المضر بالبيئة وبالصحة من صناعاتها. ويقضي البروتوكول بأن تقوم الدول الصناعية بتخفيض هذه النسبة بواقع 5.2 في المئة عام 2012م مقارنة بما كانت عليه في العام الذي وُقعت فيه الاتفاقية. إلا أن هذه النسبة علت بسرعة بسبب النمو المتزايد في انبعاث الغازات الضارة. ونتيجةً لذلك، تعهدت ألمانيا باتخاذ خطوات لتخفيض نسبة إنتاجها من ثاني أكسيد الكربون 21 في المئة في عام 2012م. أما المملكة المتحدة فكانت نسبة التخفيض المطلوبة منها 12.5 في المئة. وفيما يتعلق بفرنسا وروسيا فكان المطلوب الحفاظ على المستوى نفسه من انبعاث ثاني أكسيد الكربون في عام 2010م مقارنة بعام 1990م. وتعهدت اليابان بتخفيض مستوى نسبة إنتاجها 6 في المئة.

لقد بدأ العمل في بروتوكول كيوتو في شهر فبراير 1995م، والتزمت به 128 دولة. لكن الولايات المتحدة اختارت عدم التوقيع على هذا الاتفاق مع أنها تتحمل أكثر من غيرها مسؤولية الاحتباس الحراري العالمي. ونذكر هنا ما قاله الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون: «إن عدد سكان أمريكا يبلغ 6 في المئة من سكان العالم، لكنها تستهلك 60 في المئة من الطاقة المنتجة في العالم!» وكانت الأعذار التي قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية تتلخص في كون اتفاقية كيوتو لا تساوي بين مسؤوليات الدول، متناسية أنها الدولة الصناعية الأولى التي لا تتساوى معها أية دولة أخرى في الإنتاج الصناعي، وبالتالي في إنتاج الغازات المؤذية للمناخ! وتقول أمريكا إن الصين والهند، على سبيل المثال، تخطوان خطوات سريعة في التصنيع وبالتالي فإنهما ستساهمان في ظاهرة الاحتباس الحراري -إذا كانت حقيقية(!)- مثلها مثل الولايات المتحدة. ولكن الصين والهند لا تمتلكان الصناعات الأكثر تقدماً في العالم والقادرة على التحول السريع نسبياً إلى استخدام الطاقة البديلة أو الطاقة المتجددة.

غير أن أغسطس 2006م شهد مفاجأة أخرى لم تكن منتظرة، حين أعلنت ولاية كاليفورنيا أنها قررت، كولاية



Corbis

طاقة الرياح.. نظيفة، ولكنها إلى الآن مكلفة



الطاقة الشمسية شائعة،
ولكنها لا تكفي..

وليس كجزء من كيان فيدرالي، أن تلتزم بنصوص معاهدة كيوتو. ولهذا القرار تداعيات مهمة جداً كون كاليفورنيا أكبر ولاية من حيث عدد السكان في الولايات المتحدة، وكونها من الولايات الصناعية الكبرى التي يتواجد فيها العديد من مصافي البترول. ويعتقد الخبراء أن الأيام القادمة ستحمل لنا أخباراً عن ولايات أخرى ستحذو حذو كاليفورنيا وإن لم تتخذ الحكومة الأمريكية قراراً مركزياً بشأن تخفيض مستوى أكسيد الكربون.

آلية التنمية النظيفة

ومن الآليات التي أقرتها اتفاقية كيوتو لتحقق الدول التخفيض المشار إليه، آلية التنمية النظيفة (CDM)، وهي تلك الآلية التي صممت لتسمح للدول الصناعية التي وقَّعت على الاتفاقية بتحقيق نسبتها من تخفيض انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون بواسطة رعايتها لمشروعات تنموية في الدول النامية، ثم تحسب لها هذه الرعاية وكأنما خفضت انبعاث الغاز الضار في المشروعات التي تقيمها على أرضها. ويقام المؤتمر الدولي الأول للتنمية النظيفة في الرياض ما بين 19 و 21 سبتمبر 2006م. وفي استضافة المملكة لهذا المؤتمر، مؤشر على وضوح الصورة بالنسبة لكل الأطراف المعنية بشأن حماية البيئة أو جني الأرباح منها. فالدول المنتجة للنفط كالمملكة تدرك أن النفط سيستمر في إمداد العالم بالطاقة لعقود قادمة. ولذلك، فهي حريصة على الموازنة بين إنتاجها هذا، وبين إقامة مشروعات تنموية لتخفيض انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون كمشروع «حبس وتخزين الكربون». ويظل أنصار البيئة سعداء بالتقدم الذي تحرزه خطوات كهذه، وإن كانت لا تحقق كل طموحاتهم ومطالبهم.

أما الدول الصناعية المستثمرة في هذه المشروعات، والتي تمثل شركات القطاع الخاص والعام فيها، فتسعى إلى تحقيق هذه النسبة المتفق عليها في اتفاقية كيوتو ليس حلاً لأزمة بيئية، بل كوسيلة للوصول إلى فرص استثمارية ذات أرباح طائلة في حال تحققت.

وينطبق هذا على مديري شركات التأمين الذين يضعون خططاً لمجابهة الأخطار الاقتصادية للاحتباس الحراري. وقد قامت كبرى هذه المجموعات التأمينية بإدخال عوامل التغيير المناخي في أعمالها. وهي تعمل على تطوير منتجات جديدة لتخفيض بث ثاني أكسيد الكربون في الجو في أمريكا. أما في أوروبا، فتقوم الشركات الكبرى مثل شركة «ري» السويسرية بخطوات جادة لتخفيض انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون، وذلك لأن هذا يساعد على تخفيض كلفة شركات التأمين في تعويض زبائنها إذا ما تعرضوا لأخطار مثل أخطار الفيضانات والعواصف العاتية. ونتيجة للمبالغ الكبيرة التي دفعتها شركات التأمين في السنوات القليلة الماضية، لتعويض زبائنها عن الأضرار التي لحقت بهم بسبب الكوارث الطبيعية الأخيرة، فإن هذه الخطوة تلقى قبولاً واسعاً في صفوفها، كما هو الحال مع المدافعين عن البيئة، وإن اختلفت الدوافع والأسباب. ومن هذه الخطوات انخراط الشركات الأمريكية مع الشركات الأوروبية للاستثمار في مشروعات منتشرة حول العالم بهدف تمكين المصانع ومحطات توليد الطاقة من تحقيق أهدافها في تخفيض ما تبثه من غاز أكسيد الكربون والتقليل من كمية الطاقة غير النظيفة التي تستخدمها. وقد بلغ حجم الاستثمار في

هذه المشروعات عشرة مليارات دولار في العام الماضي، وارتفع ليصبح خمسة وعشرين مليار دولار في هذا العام.

تدافع على مشروعات الطاقة الخضراء

ويقول كارل شولتش، وهو خبير مالي لشركات الطاقة في لندن، إن هنالك طلباً كبيراً من المستثمرين الراغبين في موافقة الأمم المتحدة على مشروعاتهم المختصة بالطاقة الخضراء حيث يستطيعوا التعامل بها على أسس تجارية. ويضيف: «إنكم تشاهدون الآن نوعاً جديداً من الناس القادمين من المؤسسات المالية التقليدية – المستثمرين الذي يحملون إشارات خضراء خاصة مقابل المستثمرين العاديين». وتشير شركة «مارش» التي تعمل في مجال التأمين إلى أنه من غير المتوقع أن تستطيع المؤسسات التي لا تتبع سياسات بيئية جديدة أن تحمي نفسها من الدعاوى أمام المحاكم حول تغيير المناخ، بالرغم من أن المحاكم قد رفضت حتى الآن المطالبات المرفوعة ضد شركات الطاقة التي تنفث الكثير من ثاني أكسيد الكربون، إلا أن مثل هذه الدعاوى قد تلقى آذاناً صاغية في المستقبل مثلما حصل بالنسبة لدعاوى المطالبين بالتعويضات بعد العواصف العاتية التي ضربت الشواطئ الشرقية الجنوبية للولايات المتحدة قبل فترة والتي تزداد وتيرتها مع تقدم الزمن.

> **هناك طلب كبير من المستثمرين الراغبين في موافقة الأمم المتحدة على مشروعاتهم التجارية الخاصة بالطاقة الخضراء**

وإذا كان لنا أن نقدم مثالاً ناجحاً عما أصبح يسمى «المنتجات الصديقة للبيئة» لكان علينا زيارة المدينة السويدية الصغيرة غوثنبرغ التي يبلغ عدد سكانها 460 ألف نسمة، وهي المدينة التقليدية الثانية في السويد التي تعتمد على الصناعة والتجارة، وتعتبر أهم موانئ البلاد. تنتج غوثنبرغ السيارات (فولفو) ومشتقات النفط والتكنولوجيا المتقدمة (إريكسون)، وبالإضافة إلى ذلك، فإن المدينة تحتوي على أهم مراكز الأبحاث المتعلقة بإنتاج الأدوية. وقد أقامت المدينة برنامجاً للنصائح والتكنولوجيا الخاصة بالمواد المساعدة على التزييت، والتي تشجع الصناعة على التحول إلى المنتجات الصديقة للبيئة. وقد كان المشروع المختص بإنتاج مواد التزييت النظيفة والذي حلل الزيوت الهيدروليكية المستخدمة في الآلات والسيارات هو الأول في السويد. واختير المشروع كمثال جيد لما ذكرناه للأسباب التالية:

- الريادة في فحص وتحليل الزيوت الهيدروليكية التي تتكيف مع البيئة.
- تطوير مستوى مقبول بيئياً لاستخدام الزيوت الهيدروليكية.
- العمل على إيجاد الأساليب التقنية للتوصل إلى مستوى مقبول بيئياً على المستوى الوطني.
- القدرة على تطبيق هذه النتائج بواسطة شركات النفط.

وقد استطاع هذا البرنامج تحقيق أهدافه. فمنذ عام 1995م نشرت قائمة الزيوت الهيدروليكية التي تم فحصها وإثبات «صداقتها» للبيئة. وتبعاً لذلك، قرر مجلس مدينة غوتنبرغ البلدي شراء أسطول شاحنات مناسب لمشروع مواد التزييت النظيفة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن شركة إنتاج مواد تزييت أخرى نجحت بالتعاون مع مشروع مواد التزييت، في تطوير زيوت تشحيم صديقة للبيئة. ونتيجة لذلك، نجحت الشركة الجديدة في أن تستولي على قسم من سوق زيوت التشحيم في السويد. وهي تخطط الآن للتوسع في هذا المجال وفي مجالات زيوت التزييت الأخرى على النطاق العالمي.

ولعل الخبر الذي أثار التفاؤل العام أكثر من غيره هو الإعلان مؤخراً من قبل مجموعة من علماء البيئة أن فجوة الأوزون، التي كانت ستهدد كل أنظمة الأرض البيئية إذا استمرّت في التوسّع منذ سنوات كثيرة، قد توقفت عن هذا التوسّع. وبالتالي فإن الخطر على مناخ الأرض قد توقف الآن على الأقل وإلى حين التأكد من هذا الأمر.

المؤتمر الدولي الأول لآلية التنمية النظيفة

تشهد الرياض خلال شهر سبتمبر الجاري الحدث العالمي الأبرز لهذا العام على صعيد البيئة والتنمية، ويتمثل في استضافتها لـ «المؤتمر الدولي الأول لآلية التنمية النظيفة»، ما بين 19 و 21 منه.

ويهدف المؤتمر المنعقد برعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، وبتنظيم وزارة البترول والثروة المعدنية، وبمشاركة حشد من كبار المسؤولين والمحاضرين المحليين والعالميين، إلى تعميق الفهم للثمار الاقتصادية والمالية التي يمكن جنيها من آلية التنمية النظيفة، والبحث في مبادئ وطرق العمل بها بالإضافة إلى أوجهها المختلفة.

لمزيد من المعلومات: www.cdm-saudiconference.com



العوائد الكبيرة.. للمشروعات الصغيرة

ازداد في الآونة الأخيرة اهتمام العالم بالمشروعات الصغيرة، أو الأعمال الصغيرة، كما يشار إليها أحياناً بسبب قدرتها على استيعاب جزء مهم من الموارد البشرية ولدورها الكبير في الاقتصادات الوطنية. حتى أنه تم استحداث مقررات دراسية في الجامعات والمعاهد تحت عنوان «إدارة المشروعات الصغيرة» أو «الريادة والأعمال الصغيرة»، وبات لهذا القطاع مجلات متخصصة بنشر البحوث المتعلقة بإدارته وتنميته.

الدكتور صالح مهدي العامري* يحدد لنا معالم الأعمال الصغيرة وأهميتها ومستقبلها، وكيف يمكن أن تكون مبدعة في مجالات تخصصها.

يعتبر التعريف بالمشروعات الصغيرة وتحديدها معضلة تواجه كافة المنظمات التي تعنى بشؤونها. فضلاً عن هذا، فإن علماء الاقتصاد والباحثين فيه تختلف وجهات نظرهم عن علماء الإدارة وباحثيها في هذا المجال.

كما أن الأمر مختلف أيضاً بين الدول المتقدمة عنها في الدول النامية. ولكن هذه الاختلافات تدور في محيط مجموعة من المعايير التي تُعتمد في تحديد المشروع الصغير، منها معيارين رئيسين هما:

1. عدد العاملين: فبعض الدول والمنظمات تصنِّف المشروعات أو الأعمال الصغيرة بأنها تلك التي يعمل فيها عدد صغير من العاملين (لا يزيد في بعض الدول على عشرة عاملين، وفي بعضها الآخر لا يزيد على 30 عاملاً. وفي دول أخرى، يعتمد مقياس منظمة العمل الدولية الذي يرى أن المشروع الذي يستخدم من 1 إلى 19 عاملاً هو مشروع صغير جداً، أما الذي يستخدم من 20 إلى 99 عاملاً فهو مشروع صغير، والذي يستخدم من 100 إلى 499 عاملاً هو مشروع متوسط، وأخيراً فإن المشروع الذي يستخدم 500 عامل فأكثر هو مشروع كبير) وهناك آراء أخرى كثيرة لا مجال لاستعراضها كلها.

2. رأس المال: ويعتبر معياراً مهماً آخر في تصنيف المشروعات الصغيرة، ولا يوجد رقم محدد متفق عليه لرأس مال المشروع الصغير في الدول كافة، بل إننا نجد داخل الدولة الواحدة أن هناك اختلافاً في تحديد رأس المال. فقد أشارت إحدى الدراسات في المملكة العربية السعودية أن رأس مال المشروع الصغير في الصناعة هو 5 ملايين ريال فأقل، أما إذا كان ما بين 5 ملايين و 25 مليون ريال فإنه مشروع متوسط. في حين أن منظمة الخليج للاستشارات الصناعية اعتمدت تصنيفاً يقوم على أساس اعتبار المشروعات التي لا يزيد رأسمالها على مليون دولار مشروعات صغيرة، والتي لا يزيد فيها رأس المال على 5.5 مليون دولار أمريكي فهي مشروعات متوسطة. وبالطبع، فإن هناك معايير أخرى تعتمد في التصنيف منها مثلاً: القيمة المضافة وقيمة المبيعات وحجم الإنتاج وكمية الطاقة المستهلكة، وغيرها من المعايير التي تكون أحياناً معايير مركبة تجمع بين اثنين أو أكثر من المعايير المشار إليها.

* أستاذ إدارة الأعمال بجامعة البتراء



Flickr

أهمية المشروعات الصغيرة

إن الصورة الأولى للأعمال ومنذ فجر التأريخ كانت صورة أعمال صغيرة عائلية تتخذ وسيلة للكسب والعيش. فالشركات الكبرى لم تظهر إلا مؤخراً. ولو راجعنا الإحصاءات التي تقدمها الجهات المختلفة في أية دولة، لوجدنا أن النسبة الأكبر من شركات الأعمال هي ذات طابع صغير. ففي مدينة الرياض مثلاً أشارت إحدى الدراسات إلى أن نسبة المصانع الصغيرة والمتوسطة تبلغ 98% من المصانع الموجودة، وأن 89% من القوة العاملة المدنية تعمل في القطاع الخاص الذي يمتلك هذه المصانع. إن هذا الأمر يعكس أهمية الاستفادة من المشروعات الصغيرة في إيجاد وظائف وحل مشكلة البطالة. ففي جميع دول العالم هناك حقيقة وهي أن الأعمال الصغيرة هي المصدر الرئيس لإيجاد الوظائف وفرص العمل.

لقد أشارت الإحصاءات الأمريكية إلى أن من بين ما يقارب 23 مليون شركة أعمال في أمريكا، فإن الشركات الكبيرة التي تستخدم أكثر من 500 عامل تزيد قليلاً على 17000 شركة فقط، وأن عدد الأعمال الصغيرة زاد بمقدار 49% في العقد الأخير، كما أن هذه الأعمال زادت في السنوات الأخيرة بمقدار 580000 مشروع صغير جديد. إن هذا يوضح مدى أهمية هذا النوع من الأعمال للاقتصاد الوطني في حل مشكلة البطالة. وبالطبع، فإن جميع دول العالم وخصوصاً في أوروبا واليابان وكوريا الجنوبية تؤكد بالأرقام المذهلة على أهمية هذه الأعمال في اقتصاداتها.

ولعل أهمية المشروعات الصغيرة تتجلى أيضاً في كونها مصدراً للكثير من السلع والخدمات التي يحتاجها الأفراد في المجتمع. فهناك سلع وخدمات حرفية ينحصر إنتاجها بعوائل معينة توارثت مهنة صناعة سلعة معينة وبكميات محدودة. وبالمقابل فإن الكثير من الصناعات الكبيرة التي نراها اليوم بدأت مشروعات صغيرة وبعدد عاملين لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. وهي اليوم توظِّف عشرات الآلاف من العاملين. و لابد من الإشارة هنا إلى أن مساهمة الأعمال الصغيرة في الناتج القومي الإجمالي كبيرة. إذ تصل إلى ما يزيد على 30% من الناتج القومي، وهو رقم مهم وله تفسير عميق عند علماء الاقتصاد. كذلك فإن الأعمال الصغيرة هي حاجة للأعمال الكبيرة، بل إنها تكون مكملة لها في كثير من الأحيان. فإنتاج أجهزة الكمبيوتر من قبل الشركات الكبرى أو العملاقة يحتاج إلى الكثير من الأعمال الصغيرة التي توفر قطع الغيار والمكملات الأخرى لأجهزة الكمبيوتر فضلاً عن محلات تعليم ودورات تدريب وكذلك ورش الصيانة ومقاهي الإنترنت وغيرها الكثير من المشروعات التي توفر فرص عمل لا تحصى في كل بلدان العالم. وكذلك الأمر مع صناعة السيارات وصناعة الأجهزة


Corbis

المشاريع الكبرى صارت توكل الكثير من أعمالها إلى المشاريع الصغيرة

الكهربائية والأثاث وغيرها. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الحكومات شجَّعت الأعمال الصغيرة عن طريق السماح للكثير منها بإنجاز أعمال تخص الخدمات الحكومية أو جزء منها، توفيراً للوقت وتقليلاً لازدحام الدوائر الحكومية، وتوفيراً لفرص عمل إضافية. والأمر نفسه ينطبق على شركات الخدمات الكبيرة سواء أكانت تجارية أو استشارية أو غير ذلك.

والأهمية الكبيرة التي تعول عليها الدول اليوم وتأمل منها خيراً كثيراً هي أن الأعمال الصغيرة مصدر للإبداع التكنولوجي. فالإبداع التكنولوجي بأشكاله الأربعة الرئيسة: منتج جديد تماماً أو منتج محسن أو ابتكار عملية جديدة أو تحسين عملية موجودة مصدره الرئيس هو هذه الأعمال أو المشروعات الصغيرة. فالكثير من المخترعات والأساليب التنظيمية كان مهدها الأول مشروع صغير هنا أو هناك. وفي دراسة موثقة لإدارة الأعمال الصغيرة الأمريكية وُجد أن الإبداع المتحقق في الشركات الكبيرة هو إبداع واحد لكل عامل في حين أن هناك 2.4 إبداع لكل عامل في المشروعات الصغيرة.

> **الجهات الداعمة للمشروعات الصغيرة تتكاثر، والإنترنت يجعلها كبيرة، ويزيد من ربحيتها**

هل المشروعات الصغيرة ذات مستقبل واعد؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يمكننا أن نستشفها من المؤشرات التي تدل بوضوح على ازدياد أهمية الأعمال الصغيرة وتعاظم دورها في اقتصادات دول العالم وتوسعها بشكل مستمر. وأهم الدلائل التي تدل على هذا المستقبل الواعد هي:

- الاهتمام المتزايد من قبل المؤسسات الحكومية في أغلب دول العالم بالمشروعات الصغيرة بناءً على دراسات وبحوث كثيرة أشارت نتائجها إلى مزايا عظيمة لها. كما أن هناك اهتماماً بتدريس مواد كثيرة تتعلق بالأعمال الصغيرة وكيفية إدارتها. أما الجمعيات الخاصة بالأعمال الصغيرة والتي تهتم بتقديم النصح والإرشاد وتصدر الدوريات العلمية وتقيم المؤتمرات الخاصة بهذا النمط من الأعمال فإنها تلعب اليوم دوراً حيوياً في الترويج لها و دعم إنشائها. إلى جانب هذا، فإن هناك مؤسسات متخصصة في إقراض المشروعات الصغيرة وتمويلها وهذا أمر مشجع على ازدهارها. ولعل انبثاق ما يسمى بالحاضنات (Incubators) التي تتبنى الأفكار وتحولها إلى منتجات في اقتصادات الدول المتقدمة وكثير من الدول النامية، جعل من الأعمال الصغيرة وسيلة لإقامة عمل ناجح حيث يجتمع حاملو الأفكار بشكل مجموعة تُنضِج فكرة معينة، لتتقدم بعد ذلك إلى إحدى الحاضنات التي تتبناها وتنتجها فعلياً وتقدمها للسوق.
- انتشار ظاهرة الامتياز (Franchising): وهي ظاهرة أسهمت وما زالت تسهم بافتتاح الكثير من الأعمال الصغيرة، فالشركات الرائدة في مجال معين وإن كان لها عدد كبير من الفروع، إلا أنها تسمح لأفراد أو مجاميع من الأفراد بإنتاج المنتج نفسه سواءً أكان سلعة أو خدمة، مقابل رسوم الامتياز التي يدفعها المستفيد إلى الشركة الأم. وقد انتشر هذا الأسلوب على نطاق واسع حققت بواسطته الشركات مانحة الامتياز أموالاً طائلة. فشركة «ماكدونالدز» مثلاً تتقاضى 45000 دولار كرسوم للامتياز. وبما أنها تمتلك الكثير من الفروع مباشرة وآلاف الامتيازات التي منحتها في الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها، فإنها تجني أرباحاً طائلة. و تجدر الإشارة إلى أن الامتيازات في أمريكا وفَّرت دخلاً في سنة 2003م مقداره ترليون دولار. وبلغ عدد المشروعات الصغيرة لهذه الامتيازات 320000 مشروع في 75 صناعة مختلفة. ويوضح الجدول (1) بعض الشركات المهمة وعدد الامتيازات التي منحتها للآخرين.
- التطور التكنولوجي الهائل في مجال الاتصالات ووسائل الإنتاج. فقد أتاح هذا الأمر للكثيرين إنتاج سلع لم يكن بالإمكان إنتاجها لولا التكنولوجيا الحديثة. فالكثير من المنتجات والخدمات المتعلقة بالموسيقى والكتب والطباعة وحتى تجميع أجهزة مثل الكمبيوتر بشكل فردي توسعت وازدهرت بفضل التكنولوجيا. ومن جانب آخر فإن ظاهرة العمل عن بعد (Telecomuting) أسهمت في خلق أعمال صغيرة كثيرة.
- تحوُّل الاقتصاد التقليدي إلى اقتصاد رقمي (Digital Economy): لقد فُتحت آفاق جديدة للعمل الصغير نتيجة ظهور حقول معرفية جديدة. فقد صار من السهل بناء المواقع الإلكترونية. وصار بإمكان الحرفيين وصغار المنتجين عرض منتجاتهم طيلة 24 ساعة في اليوم وفي كل أنحاء المعمورة ومن دون كلفة كبيرة لافتتاح محلات جديدة، فلا إيجار ولا أجور كهرباء وماء ولا عاملين ولا ديكورات. إن كل هذا يؤدي إلى زيادة أرباح الأعمال الصغيرة. وفي حقيقة الأمر فإن الإنترنت يجعل من الأعمال الصغيرة كبيرة في هذا الفضاء الإلكتروني. وبفضل الإنترنت، فإن المشروعات الصغيرة في أمريكا صارت تسهم بشكل كبير في الصادرات الأمريكية، فلم تعد المشروعات الصغيرة تمارس نشاطاً محلياً فقط، ويوضح الجدول (2) مقارنة أدائها التصديري خلال فترات زمنية مختلفة.
- زيادة الاهتمام بالريادة والنزعة الريادية. فقد انتهت حقبة تكريس كل الوقت للعمل لصالح الغير حتى لو كانت شركة كبيرة. لقد ساد خلال العقدين أو الثلاثة الماضية اتجاه لدى الشباب للعمل في الشركات الكبيرة المعروفة مهما كانت الوظيفة. ولكن الفترة الحالية تشهد حالة

معاكسة وفق الكثير من الدراسات، حيث يتركز البحث عن الاستقلال في العمل والتفكير بالعمل الصغير الخاص الذي يعطي الربح الوفير والحرية الكاملة.

• البرامج الكثيرة التي ترعى الأعمال الصغيرة وتحتضن المبدعين. فقد شاع واتسع نشاط ما يسمى بحاضنات الأعمال التكنولوجية Technology Business Incubators وكذلك الحدائق أو المتنزهات التكنولوجية Technology Parks. وتلعب هذه دوراً مهماً في دعم المبدعين وتحويل أفكارهم إلى منتجات. كذلك لا ننسى ما يسمى ببرامج «الأسر المنتجة» والأعمال الصغيرة جداً وغيرها من المبادرات التي صارت الدول تتنافس في طرحها لتشجيع الأعمال الصغيرة.

كيف تكون المشروعات الصغيرة مبدعة؟

ربما يفكر البعض أن الإبداع وتقديم ما هو جديد هو من اختصاص الشركات الكبرى حيث إن لها القدرة على توفير الأموال ودعم مشروعات البحث والتطوير وقدرتها على تحمل التكاليف حين فشل مشروع الإبداع أو الابتكار الجديد. أما في حقيقة الأمر، فإن واقع الحال والدراسات العلمية الكثيرة في الدول ذات الاقتصادات المزدهرة تشير إلى غير ذلك. فالإبداعات الكبرى مثل اكتشاف البنسلين والأنسولين ومكيفات الهواء وغيرها كانت إبداعات فردية ضمن أعمال صغيرة ازدهرت بعد ذلك. نريد أولاً أن نعرف معنى الإبداع التكنولوجي ثم نتطرق إلى الآليات أو النصائح التي تؤدي إلى أن يكون العمل الصغير مبدعاً. إن الإبداع التكنولوجي هو واحد من أربع حالات سبقت الإشارة إليها. وبالطبع فإن المنتج يمكنه أن يكون سلعة أو خدمة والعملية الإنتاجية يمكنها أن تكون أسلوباً تنظيمياً إدارياً. ولا نقصد بالإبداع هنا الاختراع (Invention) بل قد يكون المنتج موجوداً في مكان آخر ومجرد إدخاله إلى منظمة أو بيئة لم يكن موجوداً فيها هو إبداع وفق مفهوم الإبداع التكنولوجي المتفق عليه.

إن تأسيس مشروع صغير رائد هو بحد ذاته إبداع. فالمنافسة كبيرة وحادة في السوق وفي أي عمل من الأعمال. وإذا لم تكن موجودة حين إطلاق المشروع الصغير فإنها ستوجد لاحقاً حيث إنه بمجرد نجاح المشروع فإن الآخرين سيقلدونه. إن الآليات التي تجعل من العمل الصغير مبدعاً بعضها فني يتعلق بالمنتجات (سلع أو خدمات) التي يتعامل بها المشروع، والبعض الآخر يتعلق بمكان العمل والعاملين في المشروع، ونجملها على الشكل الآتي:

- مأسسة الإبداع أو اعتبار الإبداع هدفاً أساساً ومنهجاً منظماً في حياة المشروع لا أن يكون حالة عرضية عابرة تحصل بالصدفة. أي أن يقنع مؤسس المشروع من حوله من العاملين أن بقاء المشروع يعتمد على ما يضاف إلى تشكيلة السلع أو الخدمات التي يتعامل بها الآن.
- توظيف التكنولوجيا والاستفادة من البرامجيات. ففي جميع المهن اليوم، توجد برامجيات تصميم تساعد أصحاب المشروعات في إدخال منتجات كثيرة جديدة. فالمشروعات التي تهتم بالبناء ومكاتب التصميم المعماري أو تصميم الأزياء أو التصميم الغرافيكي والطباعة وتصميم أغلفة الكتب والمجلات والصحافة يمكن لهذه المشروعات إبداع منتجات كثيرة من خلال برامجيات متاحة ويسهل الحصول عليها.
- على صاحب المشروع الصغير أن يستفيد من ظاهرة مهمة جداً وهي قضية الأحجام والألوان والنكهات على سبيل المثال. وهذا يدعم أصحاب المشروعات المتخصصة بالمواد الغذائية والملابس وما شابهها. فهناك الكثير من المنتجات التي يمكن أن تشتق من المنتج الرئيس وتحتاجها الشرائح المختلفة بمجرد تغيير حجم العبوة أو لون المنتج مثلاً، أو تغيير نكهة المنتج الغذائي.
- قراءة البيئة الخارجية جيداً واعتماد استراتيجية عمل مناسبة للحالات المختلفة التي يمر بها المشروع وفقاً لتقلباتها. إن هناك فرصاً كثيرة لإطلاق منتجات وخدمات جديدة تفرضها التغيرات في بيئة العمل الخارجية. فتزايد أعداد السكان أو وجود العمل الصغير في منطقة تمتاز بوجود شريحة طلابية كبيرة مثلاً يمكنه أن يفتح آفاقاً لخدمات أو سلع جديدة يحتاجها هؤلاء الطلبة.
- الاحتفاظ بقاعدة بيانات للزبائن الذين يتعاملون مع المشروع ومعرفة ميولهم والاستماع إلى آرائهم وتحليل مقترحاتهم. فمن أهم مصادر الأفكار لمنتجات جديدة هو الزبون.

الشركة	سنة التأسيس	عدد الفروع التي تمتلكها الشركة	عدد الامتيازات التي منحتها للآخرين	رسوم الامتياز الواحد (دولار)
Burger King	1954	746	7500	40000
CD Warehouse	1992	64	239	20000
Comfort Keepers	1998	3	158	13750
General Nutrition Centers	1935	2842	1718	35000
Image Art Etc.	1999	0	30	22750
Smoothie King	1973	1	261	25000
Subway	1965	0	14700	10000
WSI Internet	1995	0	70000	34700

المصدر: *The Franchise Handbook, spring, 2002*

الجدول (1)

السنة	نسبة مساهمة الأعمال الصغيرة في الصادرات إلى دول العالم
1992	11%
1994	20%
2000	33%

المصدر: *Timothy, «Small Business Management», 2nd Edition, Boston, 2003*

الجدول (2)

- مراجعة الأفكار القديمة التي رفضت في وقتها ولم ينتج عنها منتجات جديدة. فإن الكثير من منتجات اليوم كانت أفكاراً في السابق غير قابلة للتطبيق، ولكن تطور التكنولوجيا واكتشاف مواد جديدة واستخدامها في العمليات الإنتاجية ساعد في إعادة دراستها وإمكانية إنتاجها.
- الاهتمام بالمصادرالمختلفة التي تعنى بنشاط العمل الصغير مثل الاشتراك بالمجلات العلمية المتخصصة في الحقل الذي يعمل فيه المشروع، وكذلك حضور المؤتمرات التي تعقد إذا كان مجال العمل من النوع الذي تحصل فيه هذه الأمور.
- الاستفادة من خدمات الجهات الحكومية والمنظمات الدولية والجهات الأكاديمية التي تهتم بالأعمال الصغيرة. فالاستشارات الفنية والقانونية والاستعانة بالمتخصصين في إنضاج أفكار معينة أو حلول لمشكلات عرضية هي ضرورة لا غنى عنها.

غالبية المشروعات الكبيرة كانت صغيرة، تطورت بفضل ريادة أصحابها وإبداعهم

- الاطلاع على الكتب المتخصصة في مجال تطوير المنتجات الجديدة والإبداع والريادة وإدارة المشروعات.
- خلق بيئة إبداعية من خلال الحوافز ودعم التجارب والأفكار والمشروعات التي تحاول إنضاج منتج جديد، مع تقبل الفشل المحتمل وتحمل التكاليف لأنه لا منتجات جديدة من دون محاولات قد يفشل بعضها.
- إذا أتيحت الفرصة وتوافر المال، فمن الممكن الإبداع عن طريق تملك عمل ناجح قائم عن طريق شرائه أو المشاركة فيه، حيث ستضاف منتجات وأفكار جديدة وعمال جدد يمكن أن يقدموا منتجات غير تقليدية.
- إدخال المعارف الجديدة أو دراسة إمكانية تطبيقها في العمل. فالاقتصاد اليوم هو اقتصاد المعرفة، وتقاس قيمة الأعمال اليوم بالمخزون المعرفي فيها. فعلى صاحب العمل الصغير البحث عن فنيين متميزين مثلاً يساعدونه في تنفيذ أفكار قد تبدو صعبة أول الأمر.

إن غالبية الأعمال الكبيرة التي توظف مئات الآلاف من العاملين اليوم لم تكن سوى مشروعات صغيرة. لكن ريادة صاحب المشروع وقدرته على الإبداع جعلت منه مشروعاً عملاقاً. إن هذه الفكرة الأولية عن المشروعات أو الأعمال الصغيرة ما هي إلا خطوة أولى على طريق بناء المشروع الصغير، ولا بد من جهات داعمة تتولى تقديم الاستشارات الفنية والقانونية وتتابع تنمية هذا النمط من الأعمال. كذلك فإن وجود مؤسسات إقراضية تدعم هذه المشروعات هو أمر حيوي، وأخيراً فإن توعية الآباء وحثهم على تشجيع الأبناء على ولوج هذا الميدان بدلاً من انتظار الوظيفة الحكومية، يؤدي إلى انتشار هذه الأعمال ودعم الثقة بالنفس لدى الشباب.

اقرأ للاقتصاد



قبل البدء بالمشروع

تتوافر في المكتبات مجموعة كبيرة من الكتب الإرشادية الموجهة إلى أصحاب المشروعات الصغيرة كما تشير عناوينها بوضوح. ولكن معظمها ينطلق من التحديد القائل إن المشروع الصغير هو الذي يتضمن ما بين 15 و 20 عاملاً فيه. وأصحاب هذه الأعمال قلما يعتمدون على الكتب خلال إعداد مشروعاتهم. في حين أن الحاجة الحقيقية هي إلى الكتب التوجيهية التي تخاطب أصحاب المشروعات «الصغيرة جداً» أي تلك التي يعمل فيها أقل من 15 عاملاً.

واحد من أفضل هذه الكتب صدر مؤخراً في طبعته العربية الثالثة من مكتبة جرير، وهو بعنوان «كيف تبدأ مشروعاً وتديره وتحافظ عليه» من تأليف جريجوري وباتريشيا كيشل.

وعلى الرغم من أن الكتاب يقع في 304 صفحات، فهو يتضمن ثمانية عشر فصلاً مستقلاً، وتحت عنوان لكل فصل هناك مجموعة كبيرة من العناوين الفرعية التي تسهّل على القارئ التركيز على جانب معين من الموضوع من خلال نص قصير جداً بعيد عن التعقيد.

ومن أبرز فصول الكتاب: إعداد خطة العمل، المبنى، إنشاء المشروع، حفظ التسجيلات والضرائب، السيطرة على الجرد، تحديد السعر، الاستراتيجية الدعائية والإعلانية، البيع والخدمات وصولاً إلى حق الامتياز والحصول على المساعدة.

ولو أخذنا هذا الأخير على سبيل المثال، لوجدنا أنه يضم العناوين الفرعية الآتية: الحصول على المساعدة الخارجية، المحاسبون، وكالات الإعلان، المحامون، المصرفيون، الغرفة التجارية، الكليات والجامعات، المكتبات، مستشارو الإدارة والتسويق.. وغير ذلك الكثير.

تؤكد مفاهيم اقتصادية وتصحح أخرى اجتماعية

فـرق العمل.. في عالم الحيوان

تشكل «روح الفريق» واحدة من قيم العمل التي تسعى المؤسسات في العصر الحديث إلى زرعها في صفوف العاملين فيها؛ نظراً لعوائدها الإيجابية على الفرد والمجموعة والإنتاج، حتى صارت شرطاً من شروط النجاح. الدكتور مدحت مريد صادق* يتناول في هذا الموضوع فرق العمل في عالم الحيوان، حيث يكون التعاون ضمن الفريق المتكافل مكتسباً طبيعياً ويندرج ضمن الشروط الضرورية لبقاء النوع، ويتجاوز في عمقه «روح الفريق» الإنسانية، ليعيد صياغة مفهوم جديد لمعنى الفرد والمجموعة.

كانوا ستة من الأصدقاء ألقت بهم المغامرة إلى منزل شبه مهجور تحوطه الثلوج المميزة لشتاء أوروبا القارس، وكان عليهم أن يبيتوا ليلتهم في هذا المنزل الذي يخلو من أية وسائل للتدفئة. لكن التفكير لم يطل، فسرعان ما أخرجوا أغطيتهم البسيطة واختاروا أضيق حجرة بالمنزل وافترشوها معاً، وما هي إلا ساعة حتى كانت حرارة الأجسام قد أدفأت الغرفة الصغيرة لينام الجميع نوماً هانئاً حتى الصباح.

ليس البشر وحدهم من يتقن التعامل مع ظروف كهذه. فطيور البطريق، مثلاً، تتزاحم بالطريقة نفسها تقريباً لإنتاج الحرارة الكافية لحضانة بيضها في شتاء القطب الجنوبي. وبعض القشريات الصغيرة عندما يتهددها ارتفاع قلوية المياه من حولها تلجأ إلى التجمع والاحتشاد بأعداد وفيرة حتى تضمن ترويض قلوية المياه بفعل نواتج تنفسها الحمضية. وصغار ذبابة الفاكهة يندر أن تعيش إذا سلكت دروب الحياة فرادى، ولكن تجمعها يُمَكِّنها من البقاء وتحويل ثمرة واحدة صغيرة إلى بستان يمنح المأوى ويفيض بالغذاء.

ويزخر عالم الحيوان بأنماط أخرى من التعاون، تتدرج من هذا النوع البسيط الذي يخلو -أو يكاد- من أي تفاعل بين الأفراد عدا التجاور المكاني، كما تغيب فيه المسؤولية الجماعية، صعوداً إلى مستويات أرقى من التعاون، لعل أوثقها وأكثرها إيجابية ذلك الذي تعيشه الحيوانات الاجتماعية التي تنتظم في مجتمعات تسودها قواعد صارمة لتوزيع الأعباء وتقاسم المنافع، وتتميز بوجود وسائل فاعلة للتخاطب والتفاهم، كما تبرز فيها قِيمٌ عليا كالتفاني والإيثار واستعداد الفرد لبذل حياته طوعاً فداءً للمجموع.

---

* كاتب من مصر



National Geography

تزاحم البطريق.. للتدفئة الضرورية خلال فصل الشتاء

التعاون بين الأنواع المختلفة

وتجدر الإشارة إلى أن التعاون في عالم الحيوان ليس مقصوراً على أفراد النوع الواحد، بل يمكن أن يتعاون الحيوان مع حيوانات أخرى من غير نوعه. من أبرز الأمثلة على ذلك التعاون بين الطائر الإفريقي المعروف بالدُّبسي أو «مرشد العسل» (honeyguide) وبين حيوان «البادجر» (badger) أو عَنّاق الأرض. والحق أن هذه العلاقة تمثل نوعاً فريداً من التعاون التكاملي، فالدُّبسي لا يأكل العسل بل يتغذى على الشمع فقط وأحياناً على صغار النحل. كما يمكنه رصد مواقع أعشاش النحل بسهولة، لكنه لا يستطيع دخولها لأن معظم أنواع النحل البري في إفريقيا تبني أعشاشها في تجاويف شبه مغلقة بجذوع الأشجار لا تتسع أبوابها إلا لدخول النحلة الصغيرة. أما عَنّاق الأرض فهو حيوان ثديي يعشق العسل، وله مخالب قوية يمكنه أن يحطم بها قلف الأشجار ويقتحم أعشاش النحل بشرط أن يرشده أحد إلى مكانها. ولهذا فإن الطائر يقوم بالبحث عن أعشاش النحل، وحالما يعثر على أحدها يسارع إلى أقرب عَنّاق فيلفت انتباهه بإشارة صوتية معينة يفهمها الحيوان على أنها «اتبعني». وعلى الفور يتحرك عَنّاق الأرض وعيناه على الطائر الذي يتنقل من شجرة إلى شجرة حتى يصل الاثنان إلى المكان المقصود. وعندها يدنو عَنّاق الأرض من العش ويكشف عن غدة معينة بجسمه تبعث في الجو رائحة تنفر النحل وتدفعه إلى الهرب -تماماً مثلما يطلق البشر دخاناً لطرد النحل من أعشاشه- ثم ينقض على العش محطماً جدرانه ويأخذ في التهام العسل بينما ينتظر الدُّبسي في صبر جميل، حتى إذا شبع عَنّاق الأرض من العسل وبانت أقراص الشمع نظيفة بيضاء أقبل عليها الدبسي لينال وجبته، ثم يمضي الصديقان كل في طريق.

التعاون يتجاوز التضامن الغريزي مثل الأمومة فهو ضرورة حتى بين الأنواع المختلفة

ولقد درس العلماء هذه الظاهرة واكتشفوا أن سلوك الطائر ليس مجرد فعل غريزي خال من التفكير، وإنما هو فعل ذكي يتسم بكثير من الإبداع ويدل على أن الطائر يعي ما يفعل. فقد وجد مثلاً أن الطائر يلجأ إلى الإنسان إذا تعذر وجود عَنّاق الأرض في المنطقة، فتراه يدنو من أول شخص يلقاه ثم يحاول لفت انتباهه بشتى الطرق! صحيح أن الإنسان في الغالب لا يستجيب بالسرعة والهمة اللتين يستجيب بهما عَنّاق الأرض لتغريدة الطائر، إلا أن هذه الطيور تعلمت على ما يبدو أن تتسامح مع جهل الإنسان أو غروره، ووطنت أنفسها على الإلحاح في دعوة الإنسان للتعاون معها. وقد سجل العلماء واقعة ظل فيها طائر الدبسي يتوسل إلى بعض الأشخاص ويتبعهم وهم مسافرون بسيارتهم حتى قطع معهم مسافة ثمانية كيلومترات، وأخيراً فطن أحدهم وقرر الاستجابة للطائر فترجل وتبعه، فإذا بالطائر يقوده إلى عش كبير للنحل لا يبعد عن المكان أكثر من كيلومترين فقط. وواضح من هذه الواقعة أن الطائر كان قد رصد مسبقاً أكثر من عش واحد وأنه احتفظ في ذاكرته بخريطة لمواقع الأعشاش في المنطقة، وعندما وجد من يساعده من بني البشر اقتاده إلى أقرب هذه الأعشاش! ربما كانت تلك القدرة الفائقة هي التي دفعت بإحدى القبائل الإفريقية إلى عقد ما يمكن أن نسميه «معاهدة صداقة وتعاون» مع طيور الدبسي، فدأبت على تعليم أبنائها كيفية الإصغاء إلى هذه الطيور والتعاون معها للحصول على العسل، وقد كان هذا التعاون الفريد -ولا يزال- موضع دراسات مكثفة.



National Geography

التعاون ضمن النوع الواحد للحماية والحصول على الغذاء

أما أنماط التعاون بين أبناء النوع الواحد فبرغم تنوعها وتعدد أشكالها فإن العلماء يقسمون أهدافها إلى قسمين رئيسين للتبسيط، وهما «الدفاع أو الحماية» و «تأمين الحصول على الغذاء والمأوى». بالطبع هناك أهداف أخرى للتعاون، كاللهو والترويح أو رعاية الصغار وتنشئتهم، غير أن مثل هذه الأهداف يعتبرها العلماء أهدافاً ثانوية بالقياس إلى الدفاع وجلب الغذاء.

من مظاهر تعاون الحيوان بغرض الدفاع مثلاً تحرك الطيور في أسراب، فبهذه الطريقة يمكن للطيور أن تراقب بشكل جماعي أي معتد يقترب منها، وعندما يرصد أي طائر خطراً ما فإنه يطلق صيحة تحذير يستجيب لها كل طائر بأن يفر مبتعداً عن مركز السرب فيتشتت الجمع ويتشتت معه تركيز المفترس فيفشل في اقتناص أي من أفراد المجموعة.

والسلوك نفسه تنتهجه بعض الأسماك. إذ تسبح في أسراب وتقوم بنفس الحركة التشتتية حالما تلوح نذر الخطر. أما الغريب فهو ما يحدث في بعض الطيور كالبط البري (mallard duck)، فالأجنة قُبَيل الفقس تتبادل رسائل صوتية وتتفاوض فيما بينها -وهي بعد داخل البيض- حول التوقيت الأمثل للخروج من البيضة، أي أن كل جنين يحاول أن يعدل من موعد خروجه ليتفق مع



PictureQuest

من الممكن أن يكون التعاون للحصول على الغذاء بين أبناء النوع الواحد أو بين عدة أنواع

خروج الآخرين، حتى يتمكن الجميع من مواجهة صعوبات الحياة معاً منذ اليوم الأول! ذلك لأن مجرد الكثرة العددية يمكنها أن تكون مصدر تخويف وردع لأي مفترس محتمل.

وفي حالة غزلان المسك التي تقطن القطب الشمالي تتجمع الذكور القوية في شكل دائرة محكمة حول الصغار والإناث كلما أحدق الخطر. وتتراص الحيوانات كتفاً إلى كتف موجهة قرونها الغليظة صوب الخارج في تأهب يكفي لإقناع المفترس بتغيير وجهته. وفي «خنازير البحر» (porpoises) (والتي تسمى أحياناً «سمك يونس»، لكنها ليست أسماكاً بل حيوانات ثديية تشبه الدلافين وتتنفس الهواء الجوي) يقوم الذكور بتطويق الأنثى التي يأتيها المخاض وتبدأ في وضع مولودها، ويستمر ذلك التطويق حتى تمام الولادة، وذلك لحماية الأم ووليدها من أسماك القرش التي قد تجذبها رائحة الدم. ومعروف عن هذه الحيوانات أيضاً أنه إذا تعرض أحدها لجرح أو مرض فإن الأصحاء يتطوعون بحمله إلى سطح الماء لتمكينه من التنفس.

وفي عالم النمس المعروف باسم «ميركات» (meerkat) تتم حراسة القطيع بالتناوب، فأحد الأفراد يتخذ له مكاناً عالياً أشبه ببرج مراقبة. ومن هناك يسهر على حراسة أبناء عشيرته بينما هم يتناولون طعامهم أو يغطون في نوم عميق، حتى إذا انتهت نوبته قام فرد آخر ليحل محله!

ولا يزال العلماء بصدد دراسة القواعد التي تحكم طول نوبة الحراسة ومعايير اختيار الحراس، وكيفية تفادي الصدام أو المشاحنة عند توزيع مثل هذه المهام.

وتشكِّل إناث الفيلة وصغار السن منها مجموعات مترابطة (بينما تهيم الذكور الناضجة غالباً)، ويكفل هذا التجمع حماية ومهابة لتلك الحيوانات التي لا تنقصها الضخامة. وفي هذه المجتمعات يحظى الصغار بالتغذية والرعاية اللازمتين من جانب الأمهات وغير الأمهات على السواء، كما يعرف الصغار للكبار مكانتهم، فحين يموت أحد الأفراد مثلاً تجد القطيع، وقد أخذه الحزن، يقوم بدفنه تحت أفرع الشجر، ولا يبرح القطيع المكان قبل التأكد من حماية الفيل الميت من الطيور الجارحة حتى يحل الظلام.

القردة والإحساس بالمسؤولية

أما القردة العليا والتي تضم الشمبانزي والغوريللا وغيرهما فتعيش في مجتمعات أكثر إحكاماً، يعرف فيها الفرد أشقاءه وأبناء عمومته وأقرباءه بمختلف درجاتهم، بل يعرف جميع الأفراد الآخرين بشكل شخصي، وتنتشر الصداقات والتحالفات، ويتفاهم الجميع بلغة يقدر العلماء حجم مفرداتها اللغوية بأنها تكفي لتناقل بضعة آلاف من الرسائل ذات المضامين المختلفة. وبرغم عدم خلو تلك المجتمعات من خصال سيئة كالغش والخداع والخيانة


PBase

صلات القربى
بين العائلات..
تلعب دورها

أحياناً، إلا أن التعاون على تنشئة الصغار هو السمة الأبرز، كما يشيع الإحساس بالمسؤولية تجاه العشيرة ويبادر كل من يلمح خطراً إلى تحذير الجميع منه. وفي القردة العادية مثل البابون baboon والمكاك macaque والفيرفت vervet، تلعب قرابة الدم دوراً أساساً في تحديد العلاقات، فترى الخدمات تؤدى للأقارب باستعداد أكبر. وفي دراسة حديثة نسبياً على أحد أنواع هذه القردة في شرق إفريقيا، تبين أن في لغتها أربعة نداءات صوتية مختلفة هي أساس الحماية من الأخطار إذ تستخدم في التنبيه والتحذير. فهناك نداء يستخدم للتحذير من الطيور المفترسة كالصقر والعقاب، وتستجيب له القردة بالنظر إلى أعلى وبمحاولة الاختباء أسفل الأشجار أو الشجيرات الكثيفة، وإذا كان أحدها فوق شجرة وقت سماع هذا التحذير فإنه ينزل على الفور. وهناك نداء يستخدم للتحذير من المفترسات الأرضية كالفهد مثلاً، وحال سماعه تستجيب القردة على العكس من التصرف السابق تماماً. إذ يسارع كل منها للصعود إلى أقرب شجرة. وهناك نداء ثالث للتحذير من الثعابين، وعند سماعه تتسمر أفراد القطيع في أماكنها ويحدق كل منها في العشب مع اتخاذ وضع من يستعد للضرب بقبضته على الأرض. وأما النداء الرابع فهو على ما يبدو مخصص للتحذير من البشر، إذ تستجيب له القردة غالباً بإطلاق سيقانها


National Geography

للريح. وللتأكد قام العلماء بتسجيل هذه النداءات الأربعة ثم إعادة إذاعتها لاحقاً عبر أبواق صغيرة خبئت وسط العشب، وكانت استجابة القردة دائماً تشير إلى فهم القردة لفحوى هذه النداءات مهما تغيرت الظروف.

أما تعاون الحيوان من أجل جلب وتأمين الغذاء، فمن أبرز مظاهره أن يتعاون أكثر من فرد للانقضاض على الفريسة. وقد لا يعرف معظمنا أن كثيراً من الحيوانات المشهورة بكفاءتها في الافتراس، كالأسد والذئب والضبع وابن آوى، لا تقدم على الصيد فرادى، وإنما تتجمع وتنسق الجهود في حملات جماعية تيسر الإيقاع بالفريسة. بل إن الطيور التي تقتات على الأسماك، كالبجع مثلاً، تسبح على سطح الماء في مجموعة على هيئة صف واحد، ثم بعد ذلك ينثني الصف ليكون قوساً، ثم لا يلبث القوس أن ينغلق مكوناً دائرة حول الأسماك التي تشعر حينئذ بأنها محاصرة، فتقع بسهولة بين فكوك البجع.

«الإيثار المتبادل»
شكل من أشكال الضمان الاجتماعي

ولا يقتصر التعاون على لحظة الافتراس وحدها، وإنما في كثير من الحالات يقوم المفترس بجلب الطعام إلى أبناء عشيرته من الصغار وممن يعجزون عن القنص. ولقد درس فريق من العلماء بجامعة كاليفورنيا حالة شهيرة من حالات اقتسام الغذاء في الخفاش المعروف باسم «الخفاش السفاح» (vampire bat) والذي يتغذى على دماء الحيوانات البرية. وبرغم ما يحمله ذلك الاسم من شراسة، فإن تلك الخفافيش تعيش فيما بينها حياة اجتماعية يسودها كثير من الود والتكافل. فالخفاش الذي



أعلى مستويات التعاون هي في عالم الحشرات والنحل خصوصاً

يعود بعد وجبة دسمة يقوم بتقاسم وجبته مع غيره ممن لم يوفقوا في العثور على ضالتهم. ويتم تقاسم الغذاء بنقله من فم إلى فم. ولقد تبين من الملاحظة الدقيقة لسلوك هذه الخفافيش والتي استغرقت نحو سنوات عشر أن الخفافيش يعرف بعضها بعضاً وأن الفرد الذي يضن اليوم بغذائه على الجياع سرعان ما يفقد تعاطف المجموعة، ويتم فرزه من القطيع ثم حرمانه من الغذاء غداً عندما يدور عليه الزمن ويصبح في موقع الجائع. أما الكريم الذي يبذل جزءاً من غذائه لأقرانه عن طيب خاطر فيكون أول المدعوين إلى الغذاء في المرة القادمة. ولقد وفرت دراسة هذه الظاهرة دعماً لنظرية شهيرة في علم سلوك الحيوان عرفت بنظرية «الإيثار المتبادل» (reciprocal altruism)، والتي تقول إن الحيوان يمكن أن يؤثر رفاقه على نفسه، ولكن بحساب. فالإيثار لا يوجَّه إلا لمن يستحقه. ولا أعتقد أننا نبالغ إذا قلنا إن هذه الخفافيش المتواضعة تعتبر بسلوكها هذا أسبق من البشر إلى إرساء نظام محكم للضمان الاجتماعي، ففيها يتنازل الفرد -لطالما كان موفقاً ومنتجاً- عن بعض جهده للمجتمع، وذلك في مقابل إعالته من جانب نفس المجتمع عندما تقعده الظروف عن السعي والإنتاج!

الإيثار موجود في عالم الحيوان، والخفاش الذي يضن بالطعام على الجياع يُطرد من المجموعة

أعلى مستويات التعاون في عالم الحشرات

أما الجديد بالتأمل حقاً فهو أن أعلى درجات التعاون لا توجد في القردة العليا ولا في غيرها من الثدييات والحيوانات الراقية، بل توجد في الحشرات! ولعل نحل العسل خير نموذج للمجتمعات ذات التعاون المثالي. وربما يسود الاعتقاد بأن لا جديد هناك يستحق المعرفة بعد كل ما كتب للكبار والأطفال حول مجتمعات النحل. لكن الحق أن هذا الاعتقاد أبعد ما يكون عن الصحة، فحتى كتابة هذه السطور يطالعنا العلماء بالجديد كل يوم عن عالم النحل. ومعروف بين العلماء أن نحل العسل يحتل المرتبة الثالثة بين الكائنات الحية (بعد الإنسان وذبابة الفاكهة) من حيث حجم ما أجري عليه من أبحاث وما كتب حوله من نظريات ودراسات. ويحتل العالم النمساوي الشهير، كارل فون فريش، رأس قائمة العلماء الأفذاذ الذين اتخذوا من النحل مادة لأبحاثهم. فلقد أنفق ذلك العالم العظيم ما يربو على خمسين عاماً من عمره المديد (96 سنة) في دراسة النحل، وتتلمذ عليه عدد من العلماء الذين انتشروا في بقاع العالم وصار كل منهم فيما بعد مدرسة بحثية رفيعة المستوى. وفي عام 1973م حصل فون فريش على جائزة نوبل تكريماً له عن اكتشاف لغة النحل (bee language)، فقد كان أهم اكتشافاته أن شغالة النحل عندما تعود من الخارج إلى العش محملة بالغذاء تسارع إلى تفريغ حمولتها أولاً، ثم تتوجه على الفور إلى رفيقاتها في العش فتخبرهم -بواسطة خطوات معينة تخطوها على قرص الشمع- عن المكان الذي جلبت منه الغذاء. وقد بيَّن فون فريش وتلاميذه أن تلك الحركات تتضمن معلومات عن المسافة التي يبعدها مصدر الغذاء، وفي أي اتجاه هو، وكذلك مدى ثراء هذا المصدر. وحال تلقي الرسالة تهرع الشغَّالات إلى مكان الغذاء مباشرة، مما يوفر الجهد والوقت المبذولين في البحث عن الغذاء.

وكأنما هو قدر العلماء العظام - قوبل اكتشاف فون فريش للوهلة الأولى بالتحفظ، وتصدى له اثنان من العلماء الأمريكيين محاولين تسفيه آرائه وتفنيد طرائق البحث التي اتبعها. وقد استمر السجال في هذا الصدد أكثر من عشرة أعوام تراكمت فيها الأدلة على صحة اكتشافات فون فريش، حتى حُسِم الأمر لصالحه في النهاية. من هذه الأدلة مثلاً قيام فريق من العلماء بصنع روبوت صغير من الخشب في حجم النحلة، ثم تثبيته في ذراع جرى توصيلها بجهاز كومبيوتر يمكن برمجته لتحريك تلك النحلة الصناعية كي تؤدي الخطوات الدالة على أي رسالة يراد إبلاغها للنحل. وعن طريق هذا الروبوت الصغير أمكن للبشر، ولأول مرة في التاريخ، أن يخاطبوا النحل بلغته، وأمكنهم أن يطلبوا من النحل مثلاً بأن يخرج من العش ويجعل الشمس عن يساره بزاوية قدرها ثلاثون درجة مثلاً، ثم يطير في اتجاه مستقيم مسافة خمسة كيلومترات، ثم يحط على الأرض بحثاً عن الغذاء. وكان النحل يتلقى الرسالة فتخرج الشغَّالات من العش وتنفذ التعليمات بدقة لا يشوبها خطأ أو ارتجال. كان هذا بالطبع دليلاً قاطعاً على صحة ترجمة فون فريش للغة النحل. والآن وبعد عقود من إنجازات

فون فريش يقدِّر العلماء أن لغة النحل تبلغ من الثراء حداً يجعلها تتسع لتشكيل ألف مليون رسالة مختلفة، وهو ما يعني أن لغة النحل تتفوق من حيث السعة المعلوماتية على لغة الشمبانزي والدلافين بنحو مليون مرة!!

وفي النمل الأبيض تبلغ مظاهر التعاون ذروتها في بناء المساكن، إذ تشترك الآلاف وربما الملايين في بناء المسكن. وفي تقديري أن النمل الأبيض أيضاً قد سبق البشر إلى ابتكار «عمارة الفقراء»، تلك التي نادى بها المعماري الرائد حسن فتحي. فالنمل الأبيض يشيِّد منازله من أرخص الخامات وأوفرها في بيئته، ألا وهي حبات التراب. وبرغم ضآلة هذه اللبنات إلا أن بعض منازل النمل الأبيض يصل ارتفاعها إلى ما يوازي ارتفاع طابقين من مساكن البشر، ويتمتع بصلابة لا تقل كثيراً عن صلابة الخرسانة الإسمنتية. ولا شك أن منزلاً يقطنه ما يتراوح ما بين مئة ألف وعشرة ملايين فرد من النمل لابد أن يكون على هذا القدر من الضخامة والشموخ، كما يجب أن تتوافر فيه وسائلُ محكمة للتهوية، وطرقٌ لتنظيم الحرارة، ومسالك للإخلاء السريع عند الخطر. وكل ذلك أبدع النمل الأبيض في ابتكاره على أحسن ما يكون من فنون العمارة!

> تشكل بعض مجموعات الحشرات كائناً واحداً، وقد أعادت تحديد مفهوم الإنسان «الفرد»

التعاون يغيِّر تعريف «الفرد»

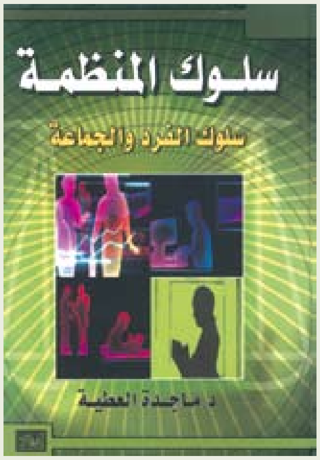
ولسنا بالطبع بصدد سرد كل مظاهر التعاون في النحل والنمل الأبيض، فالمقام لا يتسع لذلك. لكن الجدير بالذكر أن البحوث التي أجريت على الحشرات الاجتماعية كان لها الفضل الأكبر في صياغة بعض النظريات البيولوجية التي قد تبدو غريبة لغير المتخصص، لكنها تملك من المقومات العلمية ما يجعلها موضع اعتبار من المختصين. إن الفرق الأهم بين الحياة الاجتماعية للحيوانات الراقية كالقردة العليا مثلاً، وبين الحشرات الاجتماعية هو أن القرد يستطيع العيش بمفرده، وإن كان يفضل الحياة الاجتماعية. أما في الحشرات الاجتماعية كالنحل والنمل الأبيض فلا حياة للفرد وحده بأي حال من الأحوال. فشغَّالة النحل برغم أنها تقوم بكل الأعمال الشاقة وغير الشاقة في المستعمرة إلا أنها تعجز عن العيش بمفردها مهما توافر لها من ظروف! إن حتمية العيش الاجتماعي هذه كانت الأساس في صياغة النظرية الشهيرة المعروفة باسم «الكائن الفائق» (superorganism) والتي تقول إن مستعمرة النحل أو النمل الأبيض، أو غيرهما من الحشرات الاجتماعية، هي في الواقع ليست عدداً من الكائنات بل كائناً واحداً فائقاً، وأن ما نعتبره فرداً، كالشغَّالة مثلاً، إنما يناظر الخلية في الإنسان. فكما تعجز خلية الإنسان عن البقاء حية بمعزل عن جسم الإنسان فإن شغَّالة النحل تعجز عن البقاء حية بمعزل عن جسم المستعمرة.

لقد غيرت هذه النظرية التعريف التقليدي لمصطلح «الفرد» بعد أن وسعت تخومه ليشمل مستعمرة النحل أو النمل الأبيض. من ناحية أخرى، أثبتت بحوث الوراثة أن إيثار شغَّالات نحل العسل لنسل شقيقتهن الملكة هو نتيجة إملاء جيني لا تملك الشغالة إزاءه إلا الانصياع، وكان في ذلك دعم لنظرية أخرى صاغها العالم الأمريكي الشهير ريتشارد دوكنز وتعرف بنظرية «الجين الأناني» والتي تعتبر أن «الوحدة» الأساسية في البيولوجيا ليست هي ذلك «الكائن الفائق»، ولا هي «الفرد» التقليدي، ولا حتى «الخلية»، وإنما هي «الجين»، وأن هذا الجين يتسم بالأنانية المفرطة ولا يعبأ إلا بنفسه. فما نحن كأفراد إلا وسائل يستخدمها ذلك الجين الأناني للإكثار من ذاته وإشباع نرجسيته. فالبيضة تقرر أن تفقس وتنتج دجاجة لأن هذا هو السبيل الأمثل أمامها لإنتاج المزيد من البيض، والجين داخل شغَّالة النحل يدفعها للتضحية بحياتها في سبيل رعاية صغار ليسوا من صلبها، والجين داخل خلايا البشر يدفع الإنسانَ إلى الزواج وإنتاج المزيد من البشر، وتكبد المشاق في رعايتهم، لأن هذا هو السبيل الأمثل للإكثار من ذلك الجين الأناني!

بطبيعة الحال تظل تلك النظرة الاختزالية الشديدة لدور الفرد ومكانته موضع جدل بين علماء البيولوجيا. ولكن الأهم أنه بينما تحاول مختبرات العلم الوصول إلى إجابة في هذا الشأن، تواصل شغَّالة النحل عملها في صمت لفائدة مجتمعها، ويواصل النمل الأبيض بناء منازله، ويسهر النمس حارساً لأهله، غير عابئين بتنظيرات العلماء وتخريجاتهم.


PictureQuest
تجمع الفيلة.. لغرض المهابة

اقرأ للعمل



فريق العمل وتنظيم السلوك... إنسانياً

يطيب للكثيرين البحث عن أوجه الشبه بين فريق العمل في عالم الحيوان، وفريق العمل الإنساني. ولكن مقارنة الاثنين لا يمكنها أن تستخلص ما يتعدى بعض الخواطر الفلسفية أو الصور الشعرية. ففريق العمل في عالم الحيوان هو حتمية طبيعية، بمعنى أنه مؤلف ومحدد في موروثاته الجينية التي يستحيل عليه التخلص منها، أو تطويرها بقرار واعٍ. أما في عالم الإنسان ففريق العمل هو خيار. واعتماد هذا الخيار مرتبط بشرط انتماء العامل إلى منظمة، وهو على درجة من التعقيد والأهمية بالنسبة إلى الفرد والمنظمة التي ينتمي إليها إلى درجة أنه أصبح عالماً قائماً بحد ذاته ضمن العلوم الإدارية.

واحد من أفضل الكتب التي تبحث في هذا الشأن هو «سلوك المنظمة - سلوك الفرد والجماعة» للدكتورة ماجدة العطية، الذي صدرت طبعته الأولى عن دار الشروق في عمَّان عام 2003م.

بين المنظمة والفرد

تقول المؤلفة في مقدمة كتابها إن المنظمة تتشكَّل من أجل تحقيق أهداف معينة، ويعمل الأفراد في المنظمة من أجل تحقيق أهدافهم الشخصية. ولكي يتمكن كل من الطرفين، المنظمة والأفراد، من تحقيق أهدافهما، فإن ذلك يتطلب تحقيق التوافق بين تلك الأهداف. وإذا أخذنا بعين الاعتبار اختلاف أهداف الأفراد وتغير هذه الأهداف بتغير الظروف، إلى جانب تغير أهداف المنظمة بتغير الظروف أيضاً، فإن ذلك يؤدي إلى زيادة تعقيدات العلاقة بين المنظمة والعاملين فيها.

وتضيف المؤلفة أن كتابها هو محاولة للتعرف على العوامل المؤثرة على سلوك الأفراد والجماعات التي تعمل داخل المنظمة من خلال العلاقات الإدارية وتصميم العمل والثقافة.

الجماعة وفريق العمل

وتخص المؤلفة موضوع الجماعة وفريق العمل بباب خاص في كتابها الذي يقع في 384 صفحة. وفي حديثها عن الفرق بين الجماعة والفريق تقول: «إن الجماعة تتكون من فردين أو أكثر، يتفاعلون ويعتمدون على بعضهم البعض ويسعون إلى تحقيق هدف معين. فجماعة العمل تتفاعل أساساً للمشاركة بالمعلومات ولاتخاذ قرارات تساعد كل عضو من الأعضاء على الأداء ضمن مجاله في المسؤولية. وبذلك فإن أداءها هو فقط عملية تجميع المساهمات الفردية، ولا يظهر أثر تجميع إيجابياً يؤدي إلى تحقيق مستويات أداء كلية أكبر من مجموع مداخلات الأفراد. أما فرق العمل، فإنها تخلق أثر تجميع إيجابياً من خلال تنسيق الجهود. وتؤدي الجهود الفردية للأعضاء إلى تحقيق مستوى أداء أكبر من مجموع المدخلات الفردية.

وتقول المؤلفة في موضع آخر، إنه قبل ربع قرن من الزمن، عندما طبقت شركات مثل «فولفو» و «الشركة الغذائية العامة» أسلوب فرق العمل في عملياتها الإنتاجية، شكَّل الأمر خبر الساعة، ذلك لأن هذا النمط من العمل لم يكن مستخدماً في مكان آخر. وقد تغير الحال اليوم عما كان عليه سابقاً. فالمنظمات التي لاتطبق أسلوب فرق العمل أصبحت هي الحالة الاستثنائية.لا بل أدرجت شركات كبرى مفهوم «روح الفريق» ضمن «القيم» الأساسية التي توجه سير العمل فيها.

1 الذكي لا يهاجر

الطيور ذوات الأدمغة الكبيرة نسبياً تهاجر أقل بكثير من أنواع الطيور ذوات الأدمغة صغيرة الحجم. هذا ملخص دراسة كما نشرته المجلة المتخصصة التي تصدر عن «الجمعية الملكية للأرض» للعام 2005م.

وقد اعتمدت الدراسة على مسح شامل لعادات وأنماط عيش 134 نوعاً مختلفاً من الطيور. وقد أكدت أن الهجرة تكثر في الأنواع الأقل ذكاءً والتي لا تستطيع تحمل التقلبات المناخية أو التكيف معها.

وفريق البحث الذي قاده دانيال سول من جامعة برشلونة في إسبانيا تمكن من الوصول إلى هذا الاستنتاج بعد أن جمع معلومات كافية حول الطيور التي تعيش في شمال أوروبا وأسكندنافيا وغرب روسيا. وبالإضافة إلى الاستنتاج المذكور أعلاه، أكد الفريق أن الطيور التي لا تهاجر، تعتبر أذكى من غيرها، وتكرس ذكاءها لإيجاد الطعام والتكيف مع المتغيرات في وطنها الأم.

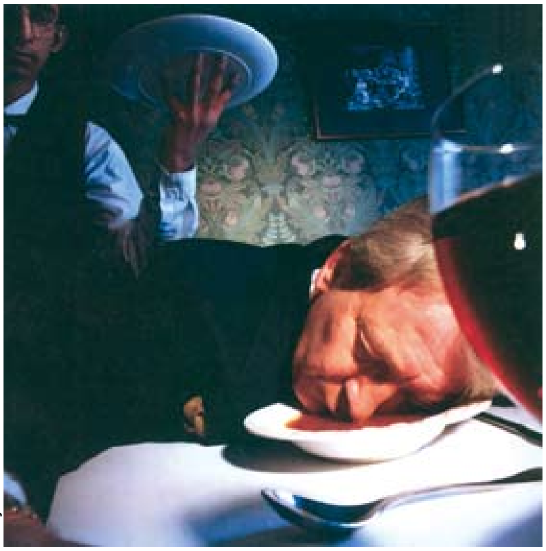


PBase

2 النعاس بعد الطعام

النعاس الذي يشعر به كثيرون بعد تناول وجبة الغداء أو العشاء لا يعود أبداً إلى مسائل تتعلق بعمل المعدة وعملية الهضم، بل إلى نوعية الطعام. فمنذ العام 2003م أثبت العلماء أن الجلوكوز الموجود في الدم يخفض إنتاج الأوريكسين في الجسم، وهو نوع من البروتين وظيفته إبقاؤنا مستيقظين، بعدما اهتدوا إلى أعصاب إنتاج الأوريكسين في الدماغ، وعرفوا مدى تأثرها بالسكريات.

وخلال الصيف الجاري، أكد الباحث دنيس بورداكوف من جامعة مانشستر في إنجلترا، أن كمية ضئيلة جداً من مستويات السكر تخفض نشاطات أعصاب الأوريكسين في الدماغ إلى درجة تكفي للتسبب بالنعاس. ولطالما أن الأطعمة غير متساوية لجهة قيمتها الغذائية ونوعيتها، فإن الأطعمة الدهنية والنشويات ترفع معدل الجلوكوز في الدم أكثر بكثير من اللحوم والخضار. لذا يمكن للعاملين نهاراً أن يكتفوا بوجبة غداء قليلة الدهون والسكريات إذا شاؤوا ألاّ يغفوا على مكاتبهم بعد الظهر.



Getty



3 البعوض والتهديد الكبير

خصت مجلة «العلم والحياة» الفرنسية غلاف أحد أعدادها الأخيرة للتهديد الكبير الذي بات يمثله البعوض في العالم. وجاء في الملف الذي احتل 18 صفحة في المجلة وأعده حشد كبير من العلماء والباحثين أن مخاطر البعوض على الإنسان باتت اليوم أكبر من أي وقت مضى بسبب جملة تحولات طرأت على حياة الإنسان والبيئة والبعوض أيضاً.

فقد أكدت إحدى الدراسات المنشورة أن معظم أنواع البعوض بدأت بغزو مناطق لم تصل إليها سابقاً. كما أن المناطق المعتدلة مناخياً باتت تسجل انتشار أنواع من البعوض لم تكن تعيش سابقاً إلا في المناطق الاستوائية الحارة.

وشددت الدراسة على خطورة ستة أنواع من البعوض بشكل خاص، ومنها ناقلة فيروسات حمى الضنك والملاريا والحمى الصفراء وداء غرب النيل، والتي صارت تغطي كافة المناطق الاستوائية في إفريقيا، وأمريكا الوسطى والشمالية، وجنوب شرق آسيا ووسطها، وجنوب أوروبا، إضافة إلى أماكن متفرقة في الشرق الأوسط.

وعزت البحوث المنشورة هذا الانتشار العالمي إلى عوامل عديدة منها:

- تطور وسائل النقل، فالبعوض صار يسافر بالطائرات والقطارات.
- قدرة متنامية على التكيف مع التقلبات المناخية.
- ازدياد أحزمة البؤس حول المدن الكبرى، وكثرة بؤر المياه الآسنة فيها.

أما العامل الأخطر فيكمن في المناعة الكبيرة التي اكتسبها البعوض ضد المبيدات، وهنا يكمن المصدر الكبير لقلق العلماء الذين يفتشون في جعبهم عن كل ما يمكن استعماله في مواجهة هذا التهديد العالمي بدءاً بالكيمياء وعلم الجينات وانتهاءً بـ «الناموسية».

4 الذُرَة.. على لائحة المهددين

يبدو أن لائحة الأجناس المهددة بالانقراض بدأت تكبر في عالم الزراعة (وليست النباتات الفطرية فقط) لتلحق بلائحة الحيوانات. فبعد الموز الذي تناولته القافلة في عدد سابق تدخل الذرة اليوم في دائرة خطر الانقراض.

ففي الاجتماع الأخير لباحثي الذرة وبنوك الجينات ومؤسسات الذرة الذي عقد في المكسيك، أعلن المؤتمرون أن الذرة تواجه تحللاً جينياً، بحيث أن نصف مخزون البذار في العالم بات غير قابل للتفريخ لأسباب غير محددة.

ومعلوم أن الذرة التي تزرع في 160 بلداً حول العالم، وتشكل سلعة غذائية أساسية مثل القمح، تتطلب للمحافظة على إنتاجية عالية حمايتها من الأعشاب الضارة والحشرات والأمراض عن طريق التلقيح المستمر بين أنواعها التي تصل إلى أكثر من 250,000 نوع، ناهيك عما أجري عليها من تعديلات جينية.

واليوم يؤكد كاري فاولر المتخصص في هذا الشأن في إيطاليا: «إن نسبة التفريخ (الإنبات بعد الزرع) في مخزون البذار المحفوظ عند الحكومات والمراكز العالمية، تتراجع بشكل دراماتيكي، وأن الجينات والصفات الجينية تضيع نتيجة ذلك».



PBase

قصة ابتكار

سكة الإنتاج

«الإنتاج بالجملة للاستهلاك بالجملة» هذا ما كان عليه شعار الصناعي الأمريكي هنري فورد، الذي سعى أكثر من غيره إلى تخفيض أسعار السيارات التي كانت باهظة الثمن في نهاية العقد الأول من القرن العشرين.

وقبل فورد، كان المهندس الأمريكي، فريدريك تايلور، قد بحث عن وسيلة تخفيض كلفة تركيب الآليات وبيع أجزائها، ووجد الحل عن طريق تجزئة العملية إلى مجموعة أعمال فردية متتالية. وأثبتت بعض التجارب صحة نظريته لجهة كلفة التجميع والتركيب وافتقار الوقت.

غير أن فورد استفاد أيضاً من زيارة قام بها إلى أحد مسالخ شيكاغو حيث كانت السكك المتحركة مستعملة لنقل الذبائح منذ العام 1870م.

وفي العام 1913م، طبَّق فورد في مصنعه للسيارات نظريات تايلور وما رآه في المسلخ. فأقام مجموعة من السكك المتحركة التي تمر أمام العمال، ليقوم كل منهم بأداء عمل واحد على صعيد الجمع والتركيب، ويكرره هو نفسه باستمرار بتحرك السكة من أمامه ووصول قطعة جديدة إليه.

انخفضت تكلفة إنتاج السيارة، وكذلك سعر مبيعها. وخلال الأربع عشرة سنة التالية (حتى العام 1927م)، أنتجت مصانع فورد 15 مليون سيارة (من طراز T-FORD) كانت كلها سوداء اللون، والاختلافات في هيكلها طفيفة.

وتجاوزت أهمية سكة الإنتاج أثرها المباشر لتصبح مادة بحث في علم الاقتصاد والإنتاج. فبالنسبة إلى فورد نفسه، دفْع الراتب للعامل على أساس القطعة يشكِّل المحفز الأكبر على العمل. ولذا راح يستخدم أيدي عاملة غير ماهرة أساساً ويدربها على مهمات بسيطة، معتبراً أن ساعات العمل القصيرة، والرواتب المدفوعة على أساس القطعة هما أساس مبدأ «الاستهلاك للجميع»، وعرفت هذه الفلسفة باسم «الفوردية».



ورغم نجاحها منقطع النظير في ذلك العصر، إلا أنه لم يكتب لسكة الإنتاج بطرازها الفوردي الأول أن تعمر طويلاً. ففي الثلاثينيات بدأ الناس يعون أن الإنتاجية الجيدة مرتبطة بمجمل أجواء العمل، وليس بالرواتب فقط. وأن أداء العمل القصير نفسه وتكراره مراراً ومراراً في اليوم الواحد أمر مرهق. ولذا راحت صناعة التجميع تتجه أكثر فأكثر إلى تقسيم العمل إلى مهمات أكثر تعقيداً يقوم بها عدة عمال مجتمعين. ومع ذلك فقد استمرت سكة الإنتاج موجودة في المصانع، ولكن العمليات أمامها صار ينفذها الرجال الآليون وليس البشر.

قصة مبتكر

إيـرل ديكسون

بالرغم من أن التاريخ لم يحفظ في ذاكرتنا اسمه، إلا أن إيرل ديكسون هو مبتكر أكثر الأدوات شهرةً وفائدة للحوادث العرضية: ضمادة الجروح اللاصقة.

ففي عام 1917م، تزوج ديكسون بجوزفين فرانسيس نايت، وسرعان ما أدرك أن عروسه الجديدة كثيرة التعرض لجروح عرضية أثناء عملها في المطبخ. فمع كل وجبة تحضرها له جوزفين، كانت تجد طريقة ما لتجرح أو تخدش أو تحرق أطراف أصابعها. ومهمة البحث عن ضمادة مناسبة لتغطية الجرح أصبحت مهمة مملة، ذلك أن الضمادات الكبيرة التي كانت تستخدمها لعلاج هذه الجروح كبيرة جداً وغير ملائمة. ولهذا، ونتيجة لإحباطه، فكر ديكسون في ابتكار يعالج بسهولة تلك الجروح التي تعاني منها زوجته. ومن هنا، خطر له أن يلصق قطعاً صغيرة من الشاش المعقم في منتصف شريط لاصق، بحيث تستطيع زوجته قص ما تحتاجه من هذا الشريط.

وقتها، كان ديكسون يعمل في شركة «جونسون آند جونسون» كشارٍ للقطن في نيوجرسي. وعندما ذكر الرجل ابتكاره لزميله في العمل، شجعه زميله على عرض هذه الفكرة على إدارة الشركة.

في البداية لم ترحب الإدارة كثيراً بالابتكار، ولكن عندما عرض عليها ديكسون كيفية عمل الضمادة، واستخدمها على جسمه بسهولة، تحمست الإدارة وقبلت الابتكار.



كانت «جونسون آند جونسون» في ذلك الحين مصانع ناجحة في تزويد المشافي والجنود بضمادات كبيرة من القطن والشاش. ولكن ولسوء الحظ، لم تلق الضمادات اللاصقة من ابتكار ديكسون رواجاً في السوق. إذ باعت منها الشركة في السنة الأولى ما قيمته 3000 دولار فقط، وربما يعود عدم نجاحها إلى أن النسخة الأولى منها كان عرضها إنشين ونصف وطولها 18 إنشاً.

استمر الحال على ما هو عليه حتى قررت «جونسون آند جونسون» أن تطرح عدداً غير محدود من الضمادات اللاصقة المجانية بين أعضاء الكشافة في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية. ومن هنا بدأ انتشار ضمادة الجروح اللاصقة. وفي العام 1924م صارت «جونسون آند جونسون» تنتج أحجاماً مختلفة من الضمادات اللاصقة. وفي عام 1939م أصبحت الضمادة معقمة بالكامل.

وتكريماً لإيرل ديكسون، عينته الشركة نائباً للرئيس، وهو منصب بقي فيه حتى تقاعده في العام 1957م. كما بقي عضواً في مجلس أمناء الشركة حتى وفاته في العام 1961م. أما الضمادات التي ابتكرها فقد تم إنتاج مئة مليار قطعة منها حتى الآن وما زالت تنتج.

اطلب العلم

جوال+ قيادة = الغباء.. علمياً

كثيرون يتحدون القانون الذي يمنع استعمال الهاتف الجوال أثناء القيادة، ويعتمدون في ذلك على ثقتهم بأنفسهم وبقدرتهم على القيام بالأمرين في وقت واحدٍ من دون فقدان السيطرة على السيارة. ولكن ماذا يقول العلم؟

«تعدد المهمات» هو مصطلح ظهر أساساً في عالم الكمبيوتر للإشارة إلى قدرة جهاز ما على تنفيذ أوامر عدة في الوقت نفسه. وفي دراسة عملية معمقة أجريت مؤخراً تأكد أن هذا المصطلح يسقط تماماً ويصبح مفهوماً خطأ عندما يتعلق الأمر بالدماغ البشري.

فالوعي لمجريات الأمور في محيط الإنسان وقيادة السيارة من النشاطات التي تتطلب انتباهاً كاملاً يتركز في الجزء الأمامي من الدماغ. ولكن قدرة هذا الجزء المحدود تعجز عن تلقي أية مهمة إضافية في الوقت نفسه، خاصة إذا كانت بحجم الحديث على الهاتف.

يؤكد الباحث جوردان غرافمان من المعهد الوطني للاضطرابات العصبية في أمريكا أن جزيئات في القسم الأمامي من الدماغ تتحرك من الأمام إلى الخلف بفعل تلقيها أوامر بسيطة، وذلك من خلال أجزاء قليلة من الثانية الواحدة. وقد تمتد هذه الحركة لمدة ثانية كاملة أو عدة ثوانٍ بفعل الأوامر المعقدة، فيبدو الأمر ظاهرياً وكأنه «تعدد مهمات»، أي القيام بأمرين في وقت واحد، في حين أن الأمرين متتاليين، وهذا الفارق الزمني ما بينهما هو الذي يشل القدرة على التعامل فوراً مع الطوارئ في المحيط، فيصبح تصرف الإنسان مهما كان مستوى وعيه وذكائه، مساوياً لتصرف الحمقى والأغبياء.

وتؤكد الدراسات الموازية لدراسة غرافمان أن الحديث عبر الهاتف خلال القيادة يتطلب إجهاداً دماغياً يفوق عدة مرات النشاط الذي يصاحب محادثة شخص آخر مع السائق في السيارة.

إذ أنه يتصاحب مع جملة أوامر، منها رسم صورة الشخص المتحرك المحفوظة في الذاكرة واستعادتها، وإرسال مضمون المحادثة إلى الذاكرة، والإجابة عن الأسئلة بالشكل الملائم.. وفي كل هذا تنشيط مرهق لجزيئات الدماغ المختلفة بحيث يصبح القسم الأمامي منه المسؤول عن إدراك المحيط مشلولاً تماماً، وبحيث أن استعمال السماعات المثبتة على الأذنين لتحرير اليدين لا يعود يشكِّل فارقاً يذكر. فخلال مكالمة تمتد لمدة دقيقة واحدة مثلاً هناك أكثر من ثلاثين ثانية يكون فيها السائق، مهما كان ماهراً ومشهوراً بنباهته وسرعة خاطرة وسلامة ردود فعله، في حالة توصف علمياً -وليس من باب التقييم أو الإهانة- بـ «الغباء».

بتصرف عن
مجلة «بوبولار ساينس»

..على إيقاع الصمت!

لقد ظَلَم ضجيج المدينة الصوت، لدرجة أن البعض قد صنَّفه في خانة الضوضاء بالدرجة الأولى، ولا غرابة في ذلك، فمن يعيش في المدينة -وهي حالة النسبة العظمى من البشر اليوم- لا يسعه إلا أن يصل لمثل هذه النتيجة. إن المدن تهتز بإيقاع الأصوات. بين ضجيج الشوارع والطائرات، ورنين الهواتف والأجراس، وصخب موسيقى الإيقاع المتلاحقة على برامج المحطات الفضائية من الصباح إلى آخر الليل.

إنها ليست أصواتاً تصل إلى الأذن وحدها، بل تحيط بالإنسان بكامله. تصله عبر ارتجاجات الجدران والنوافذ، وتتسرب من كل اتجاه، وهذا ما دفع إلى ظهور حملات الاحتجاج على «التلوث الصوتي».

لا يعرف المرء حجم ووقع «الصوت» الذي يحيط به في حياة المدينة، إلا حين يتجه إلى بلدة نائية. ومع ذلك قد يجد هناك قدراً من الصوت، مهما كان ضئيلاً، يستطيع قياسه إذا ما اتجه إلى الخلاء التام في كنف هضبة أو صحراء ممتدة. هناك فقط يشعر بما زال عن كاهله من آثار الضجيج، المخفي حيناً والصريح حيناً آخر، الذي يتعرض له في المدينة. ويشعر براحة واسترخاء غريبين وكأنه يطفو في مكان بلا جاذبية. وفي هذا الخلاء يكاد يستطيع أن يستمع إلى الصمت ويستمتع به.

وكم من أديب وشاعر تغنى بالصمت، وياليت الإنسان يستطيع أن يعزف الصمت كما يعزف الصوت، لكن الصمت أعصى على العزف، لا تحصل عليه إلا بالمقارنة.

ومن يستمع إلى الموسيقى في أشكالها الراقية، يلاحظ لحظات توقف العزف، يقصد منها الملحن أن يجعل للصمت وقع اللحن. لا بل هو يجعل لحظة الصمت تواكب لحظة اللحن كي تعزز وقعها. وفي حفلات الموسيقى الحية هناك لحظة صمت بالغة القيمة هي بين نهاية المقطوعة أو الأغنية وتصفيق الجمهور. وبقدر ما يترجم الجمهور حماسه للأداء الموسيقي بتصفيق مبكر أحياناً، إلا أنه في أحيان أخرى يترك الجمهور للحظة صمت، وذلك قبل أن يبدأ بالتصفيق. فالصوت الجميل له وقع. والصمت البليغ له وقع أيضاً. والظلم الذي أصاب الصوت هو نفسه قد يصيب الصمت.

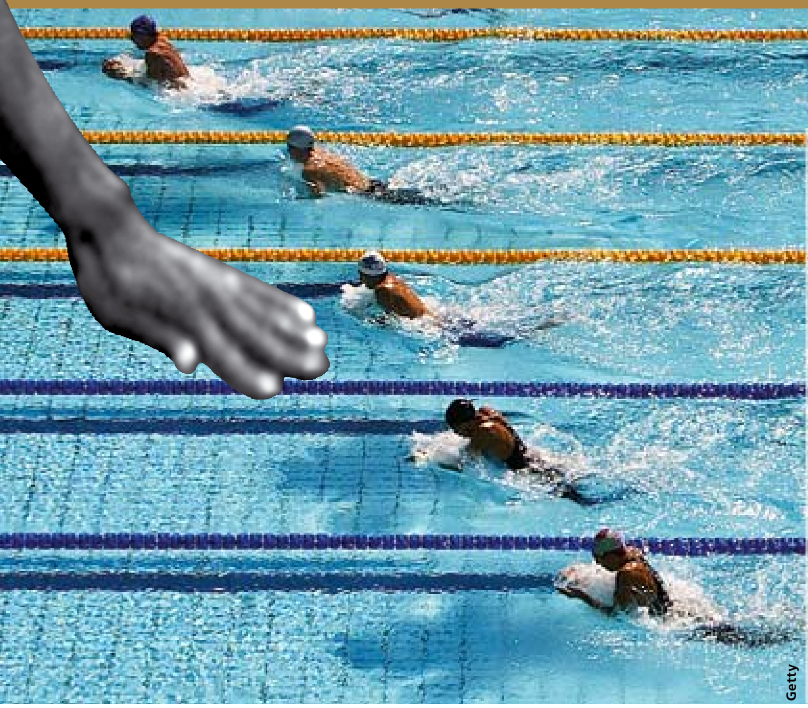
إن ما لحق بالصوت من ظلم يتعدى الأصوات الجميلة، سواء أكانت تلك التي يصنعها الإنسان في آلاته الموسيقية أو تلك التي تنتشر في البيئة الطبيعية مثل خرير المياه وحفيف أوراق الشجر وتغريد العصافير وغيرها. علماً بأن هناك آلات «غير موسيقية»، إذا جاز التعبير، حين نسمعها بمفردها وفي جو هادئ يمكن أن تمتع وتطرب، حيث يشكل التكرار الآلي المتصل إيقاعاً مريحاً للنفس، فالظلم أصاب «الصوت» نفسه، أي صوت.. لدرجة أصبح معه توقنا إلى الصمت يفوق شوقنا للصوت مهما كان جميلاً. وهذا ظلم للصوت وللصمت معاً. إذ يصبح الصمت مجرد غياب صوت وهو أكثر بكثير من ذلك. ففي الصوت صمتٌ مخفي يزيد من جماله، وفي الصمت صوت مخفي.. أو ربما «أصوت». ونحن نحتاج إلى الإثنين، بعيداً عن ضجيج المدينة.

كميل حوا


Getty


Getty

الأرقام القياسية..


Getty

في كل موسم رياضي يبرز الحديث عن الأرقام القياسية كجزء طبيعي من نسيج الرياضة نفسها، حتى أن الهدف من الرياضات المختلفة بات يبدو وكأنه يقتصر على تجاوز ما تم تحقيقه سابقاً.

فإلى متى سيتمكن الرياضيون من تحطيم الأرقام القياسية، ودفع الإنجازات إلى مستويات كانت تبدو مستحيلة سابقاً؟ وديع عبدالنور* يجيب عن هذا السؤال من خلال مراجعة تاريخ الأرقام القياسية وتطور صناعة الرياضة والأبطال، مشيراً إلى أن هذه الصناعة باتت تقف أمام خط أحمر على الصعيد الأخلاقي والإنساني.

* إعلامي متخصص في الشؤون والأبحاث الرياضية



طّم ؟

Getty

Corbis

الأرقام القياسية إلى أين؟ سؤال يتردد دائماً ويأخذنا لبرهة في التأمل والتفكير إلى أكثر من قرن، إلى الألعاب الأولمبية الحديثة الأولى عام 1896م في أثينا، فنستعيد صورة اليوناني سبيريدون لويس في الملعب الأولمبي القديم مجتازاً خط وصول سباق الماراثون (42.195 كلم)، مغموراً بالدهشة مسجلاً 2.58.50 ساعة ومحرّكاً مشاعر الاعتزاز عند مواطنيه.

وقتها لم تكن هناك ميدالية ذهبية تمنح للفائز بل فضية وغصن زيتون إضافة إلى كأس النجاح، فضلاً عن تلقيه عطايا وهبات وحتى عرض زواج.. أما اليوم، فيشترط الأبطال من ذوي الأسماء الرنانة المثقلين بالشهرة الحوافز والجوائز سلفاً! وتقاس قدراتهم على فرض شروطهم، بقدراتهم على تحقيق ما لم يتم تحقيقه سابقاً. فالنجومية هي للأقوى، الأسرع، الأسلس.. لأفعل التفضيل المقرون برقم قياسي.

وإذا كانت ألعاب القوى تستحوذ على «أضواء» الأرقام القياسية وبريقها عموماً، فإن هذه الجاذبية تشمل السباحة وسباقات السرعة المتعددة ولا سيما في إطار التزحلق على الجليد ورفع الأثقال والدراجات والرماية وصولاً إلى «صرعات» ورياضات غير مألوفة، غير أن المنطلق واحد والأساس أيضاً.

المحفزات: الدورات الدولية وتطور العلوم، والغذاء، والتجهيزات والألبسة.. وحتى المنشطات

فقد جاءت البطولات والدورات الدولية على أنواعها ولا سيما الدورات الأولمبية لتحفّز هذه العطاءات. إذ كان لها الدور البارز في تطور النتائج الرياضية والعلوم الموازية لها في مجالات التدريب والأنظمة الغذائية والتجهيزات والألبسة والمرافق وصولاً إلى العناية الطبية، وحتى المنشطات التي هي في سباق دائم مع إجراءات مكافحتها. ودخل في هذا الإطار اختيار الأماكن المناسبة المسهّلة للأهداف منها ملاعب تقع في مناطق مرتفعة عن سطح البحر مثل سيستيير (إيطاليا) أو مسارات ماراثون «سريعة» في برلين وشيكاغو وأمستردام مثلاً.

ولا شك أن تطور العلوم عموماً انعكس إيجاباً على «تطور» الجسم البشري وواكب النظرة الاجتماعية - الاستهلاكية، التي وجدت في الرياضة ومنافسات المستوى المتقدم أداة استثمارية للترويج، فكانت أساليب الرعاية والدعم التي تحولت اختصاصاً قائماً بذاته وحقل أعمال مربح، وغيّرت النظرة إلى الرياضي الذي تحوّل من البطل المثالي إلى البطل النجم، رجل الأعمال بفضل الثروات التي يجنيها.

سباق المئة متر مثالاً

قد يكون الفارق بين 9.77 ثانية و10.06 ثانية، ضئيلاً جداً لا يتجاوز رمشة عين. ولكن هذا الفارق الذي يبلغ تحديداً 0.29 من الثانية، تطلب مرور 93 عاماً من الجهود للوصول إليه.

هذا الرقم (9.77 ثانية) هو الوقت الذي سجله الجامايكي أسافا باول العام الماضي في أثينا. ومع ذلك، لم يعتقد أحد أنه سيبقى على قمة الأرقام القياسية لسباق الـ 100 متر إلى الأبد، حتى باعتقاد حامل الرقم الجديد الذي قال: «لا أحد يدري السرعة القصوى التي بإمكان أي رجل أن يعدو بها». وقد صدق ظنه، ففي 12 مايو الماضي تمكن البطل الأولمبي الأمريكي جاستين غاتلين، من معادلته في لقاء الدوحة الدولي، وأعلن أنه يستطيع تحطيمه من جديد، وأن الفرصة متاحة أمامه هذا الصيف لكي يحقق هذا الهدف.

وخبراء اللعبة مقتنعون أن رقم باول وغاتلين القياسي سيُحطم، لكن المسألة هي متى وأين وكم سيكون الفارق الزمني؟ وعندما سئل هارولد ابراهام، بعدما عادل الرقم القياسي ليحرز ذهبية الدورة الأولمبية 1924م، «إلى متى سيبقى الرقم القياسي يتحطم؟» أجاب قائلاً: «سيبقى يتحطم من هذه اللحظة إلى أن تتوقف المسابقة».

ففي عام 1892م، أصبح البريطاني سيسل لي حديث الساعة عندما نجح في دورة ألعاب الكومنولث بتحقيق رقم جديد في سباق 100 متر بلغ 10.7 ثانية، حتى أن الصحف العالمية شككت في أن يتحطم هذا الرقم، لكن منذ ذلك الوقت، «قضم» من هذا الرقم 0.93 ثانية. وتوقع رئيس قسم الإحصاءات في الإتحاد الإنجليزي لألعاب القوى بيتر ماثيوز تكرار تحطيم الأرقام، وقال: «إنها فقط مسألة وقت، وإذا أتيحت الأجواء الملائمة فإن الرقم قد يصل إلى 9.6 ثانية، وإذا نظرنا إلى روتين تحطيم الأرقام خلال السنوات الماضية، فإن الرقم الجديد لا بد من أن يُحطم».

لكن السؤال الأهم هو: متى يتوقف مسلسل التحطيم؟ وهل هناك سرعة قصوى لا يمكن أن يتجاوزها جسم العداء؟ تجيب خبيرة اللياقة البدنية البريطانية كايت أوين: «لا ندري ماهية السرعة القصوى لجسم الإنسان عموماً.. الإنسان في كل أنحاء العالم أصبح أكبر حجماً وأقوى وهذا يتصل بطريقة الغذاء واتباع أنظمة صحية أفضل من الماضي... وإذا سُئلنا كم مرة سيستمر تحطيم الأرقام


Corbis

ألعاب القوى.. ميدان الأرقام القياسية الأكثر إثارة

القياسية في ألعاب القوى، فالجواب سيكون: لا أحد يدري. ولكن الحقيقة هي أننا سنستمر في أن نكون أسرع من السابق، والأرقام القياسية ستستمر بالتحطم».

واعترفت أوين بأن لدى الرياضيين حالياً أفضليات كثيرة، مشيرة إلى أن اتباع الأنظمة الغذائية الصحية والتدريبات الصحيحة وتوافر فرق طبية لتقديم النصح والإرشادات تطورت كلها في الآونة الأخيرة، وحتى التكنولوجيا سخّرت لخدمة الرياضيين، والأحذية الرياضية أكثر تطوراً وملاءمة عما كانت عليه قبل 20 أو 30 عاماً».

تحاليل البيوميكانيك تحل محل التمارين التقليدية والمنشطات.. وتحسِّن الأداء فعلاً

ويؤكد ماثيوز أن تحطيم الأرقام القياسية وتسجيل أخرى جديدة أمر مؤكد، لأن هناك عوامل كثيرة ستساعد العدَّاء على بلوغ هدفه والتي لم تكن متوافرة لأسلافه. ويوضح: «من العوامل المهمة درجات الحرارة عندما يبدأ السباق، وسرعة الرياح ونوع المضمار. فإذا كانت الظروف غير مشجعة فلن يتحطم الرقم القياسي ولكن تحت الظروف الإيجابية والمساعدة وخصوصاً سرعة الرياح فإن العداء سيكون مهيئاً لتسجيل رقم قياسي جديد». وأكمل: «سرعة الرياح (متران في الثانية) خلف العداءين مهمة جداً في السباقات القصيرة، فهي تقضم نحو 0.2 ثانية في سباق 100 متر، وعلى سبيل المثال، عندما سجل الأمريكي موريس غرين رقمه القياسي في العام 1999م (9.79 ثانية) فإنه فعل ذلك من دون معاونة الرياح واعتقد أنه كان بإمكانه تسجيل رقم قياسي بنحو 9.65 ثانية لو ساندته الرياح».

وتعود فكرة البحث عن أسرع رجل في العالم للمرة الأولى إلى العام 776 قبل الميلاد، وتحديداً في اليونان، ونجح عدَّاء يدعى كوروبس بالفوز بجائزة «ستالديون» المخصصة لأسرع عدَّاء، لمسافة 193 متراً. ومنذ ذلك الوقت كان الرياضيون على دراية بأن الجيل التالي سيحطم أرقامهم القياسية لأنه سيكون أقوى وأسرع ولأن


Corbis

المعدات والأجهزة ووسائل التدريب وأنظمة الغذاء ستكون دائمة التطور.

النقلة النوعية: التحليل البيوكيميائي

لعل النقلة النوعية الواضحة تحققت منذ مطلع الثمانينيات من القرن الماضي من خلال مراكز مخبرية في كاليفورنيا عرفت بـ «CBA»، أو التحليل البيوميكانيكي بواسطة الكمبيوتر، وجاءت بمثابة خطوة علمية مواجهة لمنحى «فبركة» الأبطال في أوروبا الشرقية، وتحديداً في ألمانيا الشرقية عن طريق الدراسات العضلية والمنشطات.

ويشير إيلي سعادة المحاضر في التدريب والمعتمد من الاتحاد الدولي لألعاب القوى، إلى أن هذه المراكز قامت بتجارب على ثلاثة أنماط من الرياضيين: مجموعة تعتمد المنشطات سبيلاً للتطور، مجموعة تركّز على التمارين التقليدية، ومجموعة أُخضعت لتحاليل البيوميكانيك. فكانت الأخيرة هي التي سجلت أفضل النتائج.

وخلاصة القول، إن الإنسان يعتبر مجموعة مفاصل متحركة، و «البيو» علم يعتمد على أسس الفيزيائي إسحاق نيوتن المتعلقة بقوة الدفع، وهي الأساس في كل شيء، وتدرّس ضمن مناهج صفوف التربية الرياضية. وفي



Getty

تحت السبّاح، كاميرات ترصد حركاته لتطويرها



Getty

الألعاب الرياضية عموماً يكون التركيز واضحاً في الحركة على الجذع والأطراف. وعملت هذه المراكز المخبرية على تحديد كل حركة يؤديها الرياضي ومراقبتها من خلال كاميرا فيديو متطورة كانت تلتقط 10 آلاف صورة متسلسلة لجزئيات الحركة (هناك كاميرات حالياً تلتقط 3 ملايين صورة متسلسلة لهذه الجزئيات).

التكنولوجيا توضِّح «الحدود القصوى» التي لا يمكن تجاوزها.. وهي غير بعيدة عن الأرقام الحالية

واستندت هذه المراكز في عملها على تقنيات وكالة الفضاء الأمريكية NASA، وصولاً إلى النتيجة المتوخاة أي التوقيت الصحيح لتفاعل الحركة في الأطراف كلها، ما يؤمّن انسجام مفاصل الحركة وتوافقها. وتم قياس القوة التي تولّدها الحركة بواسطة آلات وإجراء حسابات تفضي إلى النتائج المرتقبة التي بإمكان الإنسان أن يحققها.

ولأن القياس الدقيق يجعلنا نكتشف الحركات «السلبية» أي التي تهدر من قوة الرياضي، وتؤثر بالتالي على النتيجة، يرصد الكمبيوتر زوايا الحركة في المفاصل ومركز الثقل في الجسم لتحديد نقاط الضعف التي تجب معالجتها. فكانت النتائج المحققة رائعة، فمثلاً رامي القرص الأمريكي ماك ويلكنز كان يسجل 66 متراً، واكتشف أن نقطة ضعفه في الركبة التي يثبّتها قبل الارتقاء. وأظهر التصوير اهتزازها بشكل يقلّص من قوة الدفع. فاستخدم مشداً طبياً مثبتاً لتحسين الأداء مع التدريب المبرمج لتفادي الخطأ، والحصيلة الميدانية كانت نجاحه في رمي الثقل إلى مسافة 70.86 متر متخطياً الرقم العالمي (69م).

وأيضاً، لاعب التنس الشهير الأمريكي جيمي كونورز الذي عُرف بإرساله الضعيف جداً والذي لم يكن يتخطى في أفضل الأحوال سرعة 80 كلم في الساعة، في مقابل 220 كلم/س لمواطنه روسكو تانر. والسبب، طبعاً بفضل التصوير الراصد، أن كونورز يقوم لحظة مباشرته الإرسال بقفزة خفيفة في الهواء تفقده شيئاً من توازنه. واستطاع بعد تمرين على تفادي القفزة «غير المرئية» أن يزيد سرعة إرساله 30 كلم/س. ومثل آخر: رامي الرمح بيل شميث الذي اتضح أنه يؤدّي حركة غير مطلوبة فينخفض حوضه لحظة الرمي، «وساهم العلاج» في تحسين رقمه إلى 92 متراً متخطياً الرقم العالمي.

وعموماً، أسهم هذا التطور «العلمي المخبري» في بلورة الحركات التقنية وفعالية الأداء من دون النظر إلى جماليته. وعلى غرار ما اعتمد في ألعاب القوى، وضعت كاميرا في حوض سباحة في شكل أكواريوم زجاج لملاحقة حركات السبّاحين، كما رصدت حركات جذع لاعب الغولف ويديه خلال التسديد.

التكنولوجيا تقيس الحدود

من جهة أخرى، ساعدت هذه التقنية في «تحديد» الحدود القصوى لقوة الرياضي العضلية في المستقبل المنظور، فأشارت إلى أن تسجيل زمن مقداره 9.6 ثواني في سباق المئة متر يشكّل الحد الذي لا يمكن تجاوزه، فبعده تتمزق عضلات و «تدمر» عظام. ويُشبّه علماء ما يحصل عندها بمن يُمسّ بتيار كهربائي قوي، وباعتبار أن القوة الزائدة تسرّع إفراز «الأسيد لاكتيت» بكثافة تحرق العضلات والجهاز العصبي.

وفي هذا الإطار أيضاً، تقف حدود القوة البشرية في الوثب الطويل عند الـ 8.96م، والرقم العالمي حالياً مسجل باسم الأمريكي مايك باول (8.95م) منذ بطولة العالم في طوكيو عام 1991م، علماً بأن أداء مواطنه بوب بيمون الذي سجل 8.90م خلال دورة مكسيكو الأولمبية عام

أرقام صامدة حتى الآن

هناك أرقام عالمية لمسابقات معتمدة دولياً لا تزال صامدة منذ أكثر من عقد، من «أقدمها» رقم البدل في الجري 4 مرات 1500 متر والمسجل باسم فريق ألماني غربي منذ 1977/8/17م (14.38.8د)، وهناك أيضاً رقم البدل 4 مرات 800 متر لفريق بريطاني سجله عام 1982م (7.03.89د). ويلاحظ رقم المكسيكي أرتورو باريوس في جري الـ 20 ألف متر (56.55.6د) وسباق ضد الساعة (21.101 متر) عام 1991م، وجري الـ 400 متر حواجز للأمريكي كيفن يونغ (46.78ث) 1992م، ورمي القرص للألماني الشرقي يورغن شولت (74.08 متر) 1986م وإطاحة المطرقة للسوفياتي يوري سيديخ (86.74 متر) 1986م، ودفع الجلة للأمريكي راندي بارنز (23.12 متر) 1990م.

وعند السيدات، يلفت الأنظار رقم جري الـ 800 متر للشيكوسلوفاكية يورميلا كراتخفيلوفا (1.53.28د) 1983م، رقم جري الـ 400 متر للألمانية الشرقية ماريتا كوخ (47.60ث) 1985م. وهما رقمان «فلكيان» عموماً إلى جانب رقمي العداءة الأمريكية الراحلة فلورنس غريفيت جوينر في الـ 100 متر (10.49ث) والـ 200 متر (21.44ث) عام 1988م، ورقم الـ 100 متر حواجز للبلغارية يوردنكا دونكوفا (12.21) عام 1988م، ورقم السباعية للأمريكية جاكي جوينر كيرسي (7291 نقطة)، ورقم الوثب الطويل للألمانية الشرقية غاليتا تشيسياكوفا (7.52 متر) في العام ذاته. ولا يُنسى رقم الوثب العالي للبلغارية ستيفا كوستادنيوفا، الرئيسة الحالية للجنة الأولمبية البلغارية، (2.09 متر – 1987م).



Getty

بين الرجال والسيدات.. الفارق يتقلّص سريعاً

خلصت دراسة نشرتها مجلة «الطبيعة العلمية» البريطانية عام 1992م، إلى أن الماراثون هي المسابقة الرياضية التي تستطيع فيها النساء «مساواة» الرجال في الأرقام والنتائج، وتوقعت أن يحصل ذلك سنة 2055م.

ولعل تحقيق البريطانية باولا رادكليف أفضل زمن قياسي للمسافة من خلال فوزها في ماراثون لندن عام 2003م، مسجلة 2.15.25 ساعة يصب في خانة هذه التوقعات، إذ بدأ الفارق يتقلّص بصورة تصاعدية، ففي غضون نحو 20 عاماً تطوّر رقم السيدات نحو 6 دقائق، بعدما سجلت النرويجية إنغريد كريستيانسن 2.21.6 ساعة. ويكشف المؤشر انحداراً سريعاً نحو أوقات غير متوقعة وصولاً إلى رقم رادكليف الأخير.

في المقابل، لم يتطور رقم الرجال في السنوات العشر الأخيرة (حتى ذلك الحين) أكثر من دقيقة ونيف، إذ كان بحوزة الأثيوبي دنسيموي عام 1933م (2.6.5 ساعة) والفارق مع رقم كريستنانسن بلغ 14.16 دقيقة وهو حالياً 9.30 دقائق مقارنة بين رقم رادكليف ورقم الرجال الذي سجله الكيني بول ترغات (2.04.55 ساعة) عام 2003م في برلين.

ويعزو الخبراء التطور إلى أساليب التدريب العصرية، واتساع قاعدة المشاركين من مستوى متقدم، وغالبيتهم باتت تفضّل التخصص في هذا المجال من دون المرور في مرحلة سباقات المضمار.

وإذا كانت رادكليف استثناء الآن بين بنات جنسها، فإن العداءات الأفريقيات وتحديداً الأثيوبيات والكينيات قادمات إلى الساحة، لأن خلاصة بحث هورسوث تنطبق تماماً عليهن، فهن ربيبات مناطق ريفية قاسية تعمل فيها المرأة وتكدّ أكثر من الرجل لتأمين ضرورات العيش مثل توافر الماء وحراثة الأرض. وبين العاملات كثيرات مؤهلات لـ «فرز» أرقام قياسية بعد إعدادهن طبعاً.

1968م، يعتبر الأقرب إلى المثالية في هذا المجال. إذ كوّن قوة مقدارها 770 كلغ لحظة الارتقاء، ووصل فيها المفصل الأمامي للحوض إلى حدود التمزّق العضلي.

ومع الأخذ في الاعتبار القامة المثالية وخصوصاً طول الأطراف والقوة العضلية والإعداد الجيد، حددت قدرة الإنسان في الوثب العالي عند ارتفاع 2.70م.

علماء يستفيدون من أبحاث ذرية لإنتاج مفاصل لا تصاب، وبرمجة جينية لتقوية العضلات

وتؤكد مقارنة علمية بين القدامى والجدد مع مراعاة الظروف والأدوات والتقدم في برامج الإعداد والتدريب، أن الأمريكي «الأسطورة» جيسي أوينز بطل دورة برلين الأولمبية عام 1936م في الـ 100م (10.02ث)، والذي ركض من دون استخدام «مكعب الانطلاق» على مضمار ترابي، كان بإمكانه تجاوز إدي هارت الذي حقق أواخر الستينيات من القرن الماضي زمناً مقداره 9.95ث، وذلك بعد الاختبارات على طول عظام مفصله، وتحليل سلسلة صور الحركة.

من «البيوميكانيك إلى التعديل الجيني

لقد لعب علم البيوميكانيك دوراً فاعلاً في تطوير النتائج من خلال تصحيح المجهود وضبط الأداء، كما أسهم المختبر الأمريكي بطريقة غير مباشرة في تحسين صناعة الملابس والأحذية الرياضية والأجهزة الطبية وأدوات التدريب المعاونة.

وهكذا منذ أكثر من 20 عاماً برهنت أمثلة ميدانية على أن الأداء المثالي المدروس يمكن بلوغه من دون عوامل كيمياوية، أي منشطات... غير أن هذا التطور التقني التكنولوجي تبلور بعد نحو عقدين من الزمن إلى مرحلة جديدة ثورية «خطرة»، بدأت تظهر عامي 2000–2001م، وهي عمليات صناعة الأبطال، وانتقل المجتمع الرياضي عموماً إلى التركيز على كيفية الإفادة من العلوم الطبيعية وتطور جراحة الأعضاء وزرع الجينات، وصولاً إلى حدود الطاقة الفيزيائية عند الإنسان أي «فبركة بطل سوبر»، من خلال استئصال الخلايا المصابة المريضة في أي عضو وزراعة عناصر بديلة لها، وكانت البداية في مجال جراحة الغضروف والعضلات.

ولعل التطور المثير والمدهش هو تكثيف الخلايا من خلال إعادة برمجة جينية على غرار ولادة «طفل الأنبوب»، مع ملاحظة التخلص من الآثار الوراثية السلبية. وشاعت هذه الوسائل لتنمية القوة العضلية كثيراً في الولايات المتحدة، لكنها في المقابل أداة تؤدي إلى تغيير في نمط الجسم البشري. واستفاد علماء من أبحاث ذرية حيوية «بيونيك» لإنتاج مفاصل لا تصاب. والضالعون في مجال الرياضة يتذكرون جيداً حارس مرمى منتخب النروج لكرة القدم توماس ماير الذي شارك في بطولة أوروبا عام 2000م في إيطاليا، وقد زرع له غضروف شبه صناعي بعد تلف الطبيعي.. والبطل العالمي والأولمبي في التزلج الألبي النمساوي هيرمان ماير «شاهد حي» على هذا العلم الحيوي، إذ ركّبت له مفاصل عدة شبه صناعية بعد حادث السير المروع الذي تعرّض له منذ أعوام، وأبعده عن المنافسة أكثر من موسمين، ثم عاد قوياً «لا يُقهر»، وأطلق عليه لقب «هيرمينياتور» تيمناً بـ «ترمينياتور» لقب مواطنه السابق أرنولد شوارزنيغر.

ومع بلوغ مرحلة التصنيع للمفاصل والأربطة، استثمر الطب الرياضي علم الاستنساخ، وبوشرت تجارب على


Corbis

الوثب العالي.. حُددت قدرة الإنسان بـ 2.70م. فهل تزيدها صناعة الأحذية بضع ملليمترات

إيجاد جينات مثالية، من لاعبين ولاعبات مميزين لصناعة أبطال «على الطلب» بعضلات ومفاصل قادرة على تجاوز الحد الأقصى، بحيث يصبح تسجيل 9.5 ث في سباق الـ 100م أمراً ممكناً. وهذا طبعاً في العرف المثالي مخالف للقانون البشري والمنافسة الرياضية وحقوق الإنسان. إنه باختصار «اغتصاب حق» أشارت إليه مؤتمرات رياضية دولية عدة، منها المؤتمر الذي عُقد في ديسمبر 2000م في مدينة العلوم في فرنسا.

إنها مرحلة اعتماد قطع الغيار في جسم الرياضي، والتعديل الجيني لصناعة أبطال صغار

يذكر أن نجم منتخب إنجلترا لكرة القدم ديفيد بيكهام تعرّض لإصابة خطرة قبل انطلاق مونديال 2002م، كادت تقضي على آماله بالمشاركة لولا استخدام تقنيات الطب الرياضي الحديثة التي سرّعت فترة تعافيه في ظرف قياسي.

وبفضل الشفاء السريع، بات الرياضيون من المستوى الدولي يخاطرون ويجازفون رافعين شعار «لا حدود» لطاقتهم، باعتبار أن الخوف من الإصابة لم يعد موجوداً، وحين يعود أحدهم إلى نشاطه الميداني يتمتع «بقوة خارقة» ثلاث مرات أكثر من الوضع الطبيعي، ما يثير التساؤل هل بقوا بشراً أم باتوا «هجيناً» من رجال شبه اصطناعيين؟

وفعّلت شركات الأدوية والأدوات الرياضية والرعاة «سبونسرز» هذه الظاهرة لأنها تهدف إلى نجوم أصحاء أقوياء يحملون أسماءها وتعود عقودهم عليها بالفائدة المرجوة ولا تخسر، بسبب إصاباتهم المفاجئة التي تبعدهم طويلاً عن الملاعب، ما تتوقعه من أرباح من خلال برامج التسويق والترويج.

ويتفرّع هذا «الاختصاص» إلى حقول عدة منها العضو المعدّل جينياً (OGM) الذي يؤدي إلى نمو سريع للأطفال فيتخرجون أبطالاً في سن صغيرة تتخطى العمر الطبيعي بفارق سنتين أو ثلاث، أي أنهم مثلاً يصلون سن البلوغ في عمر الـ 10 سنوات. كما أدى التقدم في مجال علاج الأنسجة إلى تحقيق نجاحات فائقة في إبدال الأربطة، مع الإفادة القصوى من النتائج المخبرية ومنها تجارب زرع عصب سليم في عمود فقري لفأر مشلول في جامعة ماساشوستس في بوسطن ما سيحقق فتحاً جديداً في الطب الرياضي.

إنها مرحلة اعتماد «قطع الغيار» في الجسم البشري. غير أن السؤال الملح هو: هل تزول الفروقات الطبيعية بفضل التعديل الجيني أم يبقى للتدريب والبيئة التي ينشأ اللاعب فيها وزن ودور في «الاختلاف»؟!

على درب الأرقام القياسية

- اعتمد التوقيت الميكانيكي (الكهربائي) في دورة لوس أنجلوس الأولمبية عام 1932م، و «دحرج» الأمريكي إيدي تولان الرقم العالمي لـ 100م من 10.8ث إلى 10.3ث.
- ارتدى الألمان ألبسة «ثورية» في دورة ملبورن 1956م، هي كناية عن بزات منسوجة من مادة البرولاستيك، ما شكل بداية فتح في تصنيع الملابس الرياضية.
- استخدم المضمار الترابي (الصلصال) للمرة الأخيرة في دورة طوكيو الأولمبية عام 1964م. وراج استعمال الزانة المصنوعة من الألياف الزجاجية، ما شكّل ثورة في هذه المسابقة الجذابة. علماً بأن الزانات في أوائل القرن كانت من القصب البامبو ثم الفولاذ الخفيف، ومهّد هذا الابتكار بالتالي لأن يصل الأوكراني سيرغي بوبكا إلى تجاوز ارتفاع 6.14م عام 1994م. و «تطير» الروسية يلينا ايسنبابييفا إلى 5.01م العام الماضي.
- رسخت دورة مكسيكو عام 1997م (على ارتفاع 2250 متراً عن سطح البحر) الحد الأقصى من الاستفادة من الأماكن المرتفعة عن سطح البحر لتعزيز الأرقام القياسية، حيث تقلّ كمية الهواء وتخفّ الأوزان. وسجل بالتالي 34 رقماً عالمياً و38 رقماً أولمبياً بفوارق لافتة. واعتمد التوقيت الإلكتروني رسمياً، وفرش المضمار بمادة الترتان مما أزال أي عائق طبيعي أمام العدائين.
- ومنذ 1968م إلى يومنا هذا تسارعت وتيرة الإنجازات والابتكارات الإيجابية والسلبية، وأرقام ألعاب القوى مثال على إنجازات السباحة والدراجات ومنها رقم الإيطالي فرانشيسكو موزير الذي حطّم الرقم العالمي ضد الساعة عام 1984م. ورافقه فريق فني وطبي متكامل وناسبه المكان المرتفع لذلك. وحقق إنجازه على متن دراجة «ثورية» مصنوعة من مادة «الغرافيت» (نوع من الكربون).
- ودفعت حيثيات التدريب المتطور والعقاقير الموازية أن يرمي الألماني الشرقي أوي طون الرمح أبعد من 104 أمتار، عام 1986م فخشي الاتحاد الدولي أن يأتي يوم «يطير» فيه الرمح أبعد من الاستاد ويتجاوز المدرجات أو يصيبها.. والحلّ «عقلنة» المسابقة بتقديم مركز الثقل في الرمح وتصنيع نوعية جديدة عرفت بالرمح المنغرز بدلاً من الطائر، وبعد تعديل في الأنظمة.
- غير أن «السباق القياسي» أوصل الرقم العالمي، بعد إعادة جدولته إلى مسافة 98.48 (التشيخي يان زيلزني 1996م).
- في الأعوام السبعة الماضية اتضحت أكثر فأكثر صورة تطور التجهيزات والألبسة المعتمدة ومنها خوذات الدراجين.
- ومن محطة «مكسيكو 1968م» إلى محطة «سيدني 2000م»، الدورة الأولمبية ما قبل الأخيرة التي عرفت اللباس الثوري الجديد في السباحة وكأن سباحي الأحواض غطاسون، حيث سُجل 15 رقماً عالمياً تعد هي الأكبر بعد دورة مونتريال 1976م (29 رقماً)، و16 رقماً في رفع الأثقال ورقمان في الدراجات وواحد في الرماية.

صورة شخصية

هو واحد من آخر ممثلي جيل الكبار الذين ولدوا وتربوا في فلسطين الانتدابية، ليعيشوا لاحقاً معظم حياتهم خارجها. إنه الإذاعي واللغوي حسن الكرمي الذي تختزل صورته كما يرسمها هنا إلياس سحَّاب* الكثير مما حمله القرن العشرون من تقلبات على الحياة العربية والقضية الفلسطينية بشكل عام.

حسن.. أشهر الكرميين وآخرهم



المحترف السعودي

بالإضافة إلى الخدمة الإخبارية التي صنعت شهرة هيئة الإذاعة البريطانية خارج حدودها، يمكن القول إن القسم العربي في هذه الإذاعة، قد اشتهر على مدى النصف الثاني من القرن العشرين بمجموعة من البرامج الإذاعية التي رسَّخت السمعة الإذاعية المهنية لهذا القسم. وليس من باب المبالغة القول أنه كان يقف على رأس هذه البرامج، لسنوات طويلة، البرنامج الأدبي «قول على قول»، الذي كان يعده ويقدمه الأديب الفلسطيني حسن الكرمي. ومن خلال هذا البرنامج لمع اسم الكرمي واحتل مكانته في الذاكرة الثقافية لتلك الفترة.

ولد حسن الكرمي في مدينة طولكرم (فلسطين)، في العام 1902م، لعائلة عريقة في الأدب والفقه واللغة، اشتق اسمها من اسم المدينة العريقة التي تنتسب إليها. فوالده الشيخ سعيد الكرمي (1852 - 1935م)، درس في الأزهر بالقاهرة وتتلمذ على الشيخ جمال الدين الأفغاني، واكتسب عضوية المجمع العلمي العربي بدمشق في العام 1920م، وله رسالة في التصوف عنوانها «واضح البرهان في الرد على أهل البهتان». وشقيقه الأكبر، أحمد شاكر الكرمي (1895 - 1927م) تلقى علومه العليا في الأزهر بالقاهرة طيلة ست سنوات وعمل في تحرير جريدة «القبلة»، في مكة المكرمة، ثم تنقل في عالم الصحافة بين دمشق والقاهرة. وشقيقه الآخر شاعر فلسطين الكبير عبدالكريم الكرمي، الشهير بـ «أبو سلمى» (1907 - 1980م).

أما حسن الكرمي فبعد دراسته الابتدائية في طولكرم، توجه إلى دمشق لدراسته الثانوية في «مكتب عنبر». ويقول الكرمي أنه كان هو وإخوته الفلسطينيين الوحيدين في المكتب. ويرسم في مذكراته التي نشرتها دار القدس العربي في عام 1990م، صورة حية عن التعليم والحياة في سورية خلال تلك الفترة. ويروي كيف أن طلاب «المكتب» استقبلوا الجنرال الفرنسي غورو بالصراخ عندما زار المدرسة للاطلاع

* كاتب صحافي من لبنان

على التعليم فيها. كما يتحدث أيضاً عن مشاركته في تظاهرة ضد الوجود الفرنسي في سورية.

ومن دمشق، عاد الكرمي إلى القدس للالتحاق بالكلية الإنجليزية فيها. وحاز على بعثتين دراسيتين في إنجلترا في العامين 1937 و 1945م) حيث درس أصول التربية والتعليم والإحصاء التربوي. ثم عين بعد عودته لفلسطين مفتشاً لإدارة المعارف بالقدس، ودرَّس اللغة الإنجليزية في أشهر المدارس العليا في فلسطين «الكلية العربية»، ابتداءً من العام 1938م.

وعاش الكرمي في الثلاثينيات الثورة الفلسطينية، وكان معارضاً لقيادة الحاج أمين الحسيني. فاعتُبر موالياً لسلطة الإنجليز. وازدادت أوضاعه تأزماً بعد اغتيال شقيقه محمود على أيدي بعض مؤيدي الحسيني في بيروت.

قول على قول

بعد نكبة فلسطين في العام 1948م، هاجر إلى إنجلترا، حيث انخرط في تأليف عدد من القواميس النفيسة، ثم عمل في إعداد وتقديم برنامجه الإذاعي الشهير «قول على قول» لسنوات طويلة، جمع مادته ونشرها بعد ذلك في كتاب حمل الاسم نفسه يقع في ثلاثة عشر مجلداً.

يمكن أن نطلق على هذا البرنامج الشهير اسم «شعر على شعر»، فهو بلا شك أشهر برنامج إذاعي مخصص لتناول وعرض وشرح أجمل نماذج الشعر العربي القديم والجديد.

كانت فكرة البرنامج تعتمد على توجيه أسئلة إلى الأستاذ حسن الكرمي، عن بيت شعر شهير (أو غير شهير أحياناً)، مع سؤال تقليدي، يتكرر في كل مرة: من القائل؟ وفي أية مناسبة؟

والحقيقة أنه بعد تلاوة أبيات الشعر موضوع السؤال، وطرح السؤال التقليدي المذكور، كان حسن الكرمي يغرق، ويغرق معه ملايين المستمعين العرب، بين المحيط والخليج، في محيط التراث الشعري العربي، فيقود المستمع في رحلة ممتعة لدرجة يتمنى معها المستمع عدم انتهائها. فيبدأ طبعاً بشرح معاني الأبيات موضوع السؤال، ثم يضعها في المقطع الشعري في القصيدة التي تنتسب إليها، ثم يشرح المناسبة التي دفعت الشاعر إلى قول القصيدة، وإلى تضمين الأبيات موضوع السؤال.

وقد ظلَّت الحلقات الأصلية للبرنامج، تقدَّم لسنوات طويلة في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، فعندما توقف حسن الكرمي عن تسجيل حلقات جديدة، عمدت إدارة الإذاعة البريطانية إلى إعادة بث جميع حلقات البرنامج المسجلة، فظل صوت حسن الكرمي يتردد من إذاعة لندن العربية، بينما كان هو قد أنهى هجرته إلى بريطانيا وحزم حقائبه وعاد إلى الأردن، تاركاً بعض أفراد عائلته، ومنهم ابنته غادة التي انتسبت إلى أحد الأحزاب وانخرطت في السياسة.

معاجم الكرمي

إضافة إلى كتاب «قول على قول» الذي أشرنا إليه سابقاً، أصدر الكرمي في العام 1995م، كتاب «العلم والتعليم في فلسطين والكلية العربية في القدس»، وهي الكلية التي درَّس فيها اللغة الإنجليزية، وكانت الصرح الذي خرَّج كبار المثقفين الفلسطينيين قبل النكبة. غير أن أشهر أعماله تبقى سلسلة القواميس والمعاجم التي وضعها وابتدأت بـ «المنار» عام 1970م، ثم تبعها «المغني» و «المغني الكبير» ثم «المغني الأكبر».

في عام 1983م، عينه مجمع اللغة العربية الأردني عضواً فخرياً فيه. وكان قد نال وساماً من ملكة بريطانيا في العام 1969م على خدماته في مجال العمل الإذاعي.

لا همَّ له غير اللغة

ومن شهادات الذين عرفوا حسن الكرمي عن كثب، قد يكون ما رواه عنه الكاتب المصري حسين أحمد أمين أبلغها وأكثرها إيجازاً. إذ يقول وهو الذي عمل معه في هيئة الإذاعة البريطانية: «لم يكن رؤساؤنا من الإنجليز يحترمون أحداً منّا احترامهم لحسن الكرمي». ويضيف: «كان نادراً ما يبتسم، ونادراً ما ينفعل، بارد العاطفة، أو هكذا خيل إلي... أما المؤكد فهو أنه كان دودة كتب، لا حديث له إلا في ما يقرأ أو يكتب، في تصريف فعل أو أصل كلمة... ولا غرام يشغل قلبه غير الغرام باللغة العربية... أما الاهتمام بالمسرح أو الموسيقى والسينما وفنون التصوير والنحت والباليه والأوبرا فقد كان معدوماً، على الأقل من خلال حديثه».



الخيال العلمي ضرب من ضروب الأدب لا يزال في عالمنا العربي محاطاً بشيء من الارتباك في التعامل معه، ويزيد من هذا الارتباك عدم تحديد مفهوم هذا النوع من الأدب، ورواج الاعتقاد أنه فن غربي الهوية لا علاقة له باهتمامات الإنسان العربي وهمومه.

Corbis



National Geography

هنا ثلاث مساهمات تتكامل في إجلاء الكثير من الغموض الذي يكتنف أدب الخيال العلمي والمفاهيم الشائعة حوله. فالمساهمة الأولى تسعى إلى التعريف به، وتتناول صلة القرابة ما بين الخيال العلمي وبعض التطورات العلمية الحقيقية، كما تؤكد حضور هذا الفن على ساحة الأدب العربي المعاصر من خلال تعداد بعض الأسماء اللامعة فيه في المشرق والمغرب على حد سواء. وتهدف المساهمة الثانية إلى إظهار الفرق بين الخَيال العلمي واستشراف المستقبل. أما الثالثة فتتضمن مفاجأة للكثيرين تكمن في الكشف عن رائد عرفه الجميع روائياً وأديباً من الصف الأول في عصر النهضة، وبقي لنا أن نعرف أنه كان النظير العربي لجول فيرن الأوروبي.

الخيال العلمي..

علم آثار المستقبل

1 أناناس على سطح القمر: أدب الخيال العلمي والعالم العربي

بقلم د. أحمد خالد توفيق*

ربما كان أول مقال يعرِّف الخيال العلمي هو ذلك الذي نشر في نيويورك هيرالد في سبتمبر 1835م، وكان نقداً لقصة كتبها ر. أ. لوك. فقد اعتبر المقال لوك مبتكراً لنوع جديد تماماً من الأدب، واختار كاتب المقال لهذا النوع اسم (القصة العلمية). إلا أن هناك تعريفات عديدة للخيال العلمي منها:

- الخيال العلمي هو خيال ممزوج بالحقائق العلمية والرؤية التنبؤية، وبالذات هو ما يكتبه جول فيرن وهـ. ج. ويلز. (هوجو جيمزباك – 1926م).
- الخيال العلمي هو خيال أسس على فروض علمية أو علمية زائفة، تم صبها في قالب غير حقيقي لكنه كذلك غير خارق للطبيعة (سبراج دي كامب – 1953م).
- الخيال العلمي هو مصالحة بين الأدب والعلم اللذين حسبهما الكثيرون متعارضين يقوم أحدهما على الخيال ويقوم الآخر على التجربة والاستقراء (يوسف الشاروني).

صار من الحقائق المفروغ منها أن تنمية الخيال العلمي مدخل ضروري لتنمية الإبداع والكشف المبكر عن المبدعين. وقد أدركت الدول المتقدمة هذه الحقيقة، فقامت بإدراجه في مناهج التعليم المختلفة، وافتتاح أقسام دراسية بالجامعات في تخصص أدب الخيال العلمي. وكما يقول كاتب الخيال العلمي العظيم (آرثر كلارك) -صاحب «أوديسا الفضاء 2001»-: «القراءة النقدية لأدب الخيال العلمي هي بمثابة تدريب أساس لمن يتطلع إلى الأمام أكثر من سنوات عشر».

الخيال العلمي والتطبيقات المعاصرة

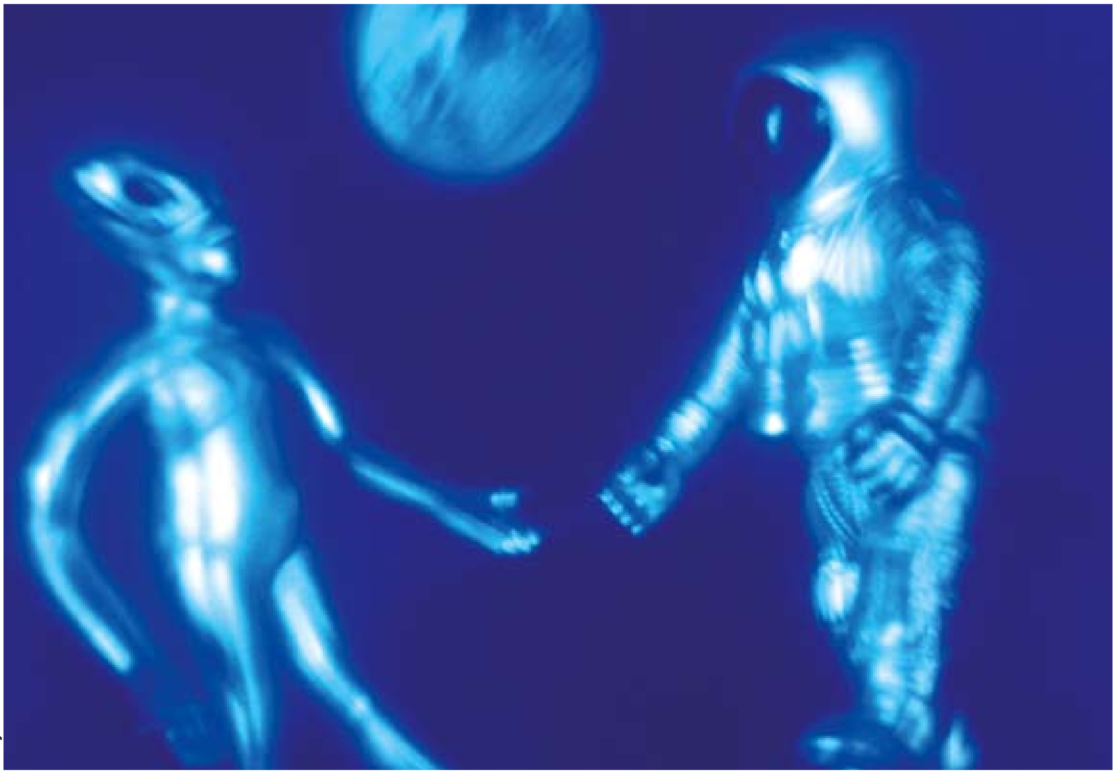
لم يعد الخيال العلمي يقتصر على تفسير ما حدث بأثر رجعي (أي أن فلاناً تنبأ بكذا وكيت)، بل بدأ استخدامه لفهم ما سيحدث أو ما يجب أن يحدث. على سبيل المثال تهتم وكالة ناسا ووكالة الفضاء الأوروبية إيسا ووكالة مشاريع أبحاث الدفاع المتقدمة بالبحث في أعمال الخيال العلمي بحثاً عن أفكار واعدة تصلح.. ومن الملاحظ أن الصورة العامة قد تبدو محبطة للبعض لأن تصور كتَّاب الخيال العلمي للقرن الواحد والعشرين كان أكثر طموحاً، ويكفي أن خمسة أعوام قد مرت على عالم (2001 أوديسا فضائية) كما تخيله آرثر كلارك.. ولكن ثورة الاتصالات والمحمول والإنترنت والقنوات الفضائية تبدو جامحة بالمقارنة بخيالات كتَّاب الخيال العلمي.. في حين يبدو أن ثورة الاستنساخ تمشي كما تصورها كتَّاب الخيال العلمي بالضبط. ويظل استكشاف الفضاء في طفولته بالنسبة لما تصوره هؤلاء.. على أننا نحمد الله على أن الجحيم الشمولي الذي تخيله جورج أورويل في (1984م) مثلاً لم يتحقق..

من الأمثلة القريبة لنا فكرة حرب النجوم التي هي تأثر واضح مباشر بأفكار الخيال العلمي.. لقد بدأت الفكرة في الستينيات في الولايات المتحدة كوسيلة للتصدي للصواريخ عابرة القارات، وقد أنتجت الولايات المتحدة الصاروخ «نايك زوس» لهذا الغرض.. وقد نجح هذا الصاروخ في اعتراض صواريخ تيتان وأطلس عابرة القارات.. ثم تبلورت الفكرة أكثر في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان، عندما أعلن عام 1983م عن «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» التي عرفت فيما بعد باسم «حرب النجوم».

إلى ذلك، فإن فكرة وجود حياة على كواكب أخرى هي فكرة محورية في أدب الخيال العلمي، ووصل الأمر إلى درجة أن هذه الفرضية تحولت من مجرد مادة فلسفية إلى نظرية علمية تناقش في الأوساط العلمية الرصينة. وقد اتخذت بالفعل الخطوة الأولى في المشوار الاستكشافي بفضل وكالة الفضاء الأوروبية إيسا ESA. التي سمحت للمهمة الفضائية المعروفة باسم (COROT) أن تنطلق في عام 2005م إلى أعماق الفضاء الخارجي بحثاً عن كواكب تشبه الأرض في الخصائص المناخية وفي الظروف المعيشية الأخرى بحيث يتاح لصورة أو أخرى من صور الكائنات الحية أن تعيش فيها.

فكرة الانتقال الآني سيطرت لفترة طويلة على عقول العلماء، خاصة أنها صارت من تقاليد أدب الخيال العلمي.. ومؤخراً تم إحياء ما يعرف بتأثير (أينشتاين - بودلوسكي - روزن) والذي نوقش عام 1930م.. أن تدخل كابينة صغيرة لتتلاشى جزيئاتك وتتجمع في زمن آخر أو مكان آخر أو الاثنين معاً.. يشبه الأمر آلة الفاكس التي تدخل فيها الورقة هنا لتخرج في اليابان مثلاً، مع فارق مهم هو أن الأصل يختفي.. تطبيقات الفكرة مغرية بلا شك وتنذر بثورة حقيقية في وسائل الانتقال والاتصالات.

* كاتب من مصر



لقاء الإنسان بالمخلوقات الفضائية.. من أطول المواضيع عمراً

وقيل إن هذه التجربة نجحت بشكل محدود جداً مع قطعة عملة انتقلت مسافة تسعين سنتيمتراً وعبر وسطين متصلين، وقد استغرق ظهور الثاني حوالي ساعة.. دعك بالطبع من حالة تداخل الجزيئات المعقدة التي صار إليها الجسم والتي أقرب وصف لها هو (عجين الجزيئات)، مما يجعل فكرة نقل جسم أكثر تعقيداً شبه مستحيلة في الوقت الحالي وبمعرفتنا الحالية..

وترتبط الفكرة ذاتها بفكرة أخرى بالغة الأهمية لدى كتَّاب الخيال العلمي، هي فكرة السفر عبر الزمن.. وقد افترض أينشتاين في نظريته أن هناك طريقتين للسفر في الزمن.. إما بالسرعة أو الجاذبية.. إن الفترة بين حدثين تعتمد على حركة الراصد. وفي حال حركة راصدين بسرعتين مختلفتين، فإنهما سيرصدان فترتين مختلفتين بين الحدثين نفسيهما، وهو ما يطلقون عليه (تناقض التوأمين Twin paradox). لقد أثبتت الساعات الذرية أن هذا الكلام دقيق وقابل للتحقيق. اقترح أينشتاين كذلك فكرة أن الجاذبية تعرقل الزمن، وأن الساعة تسير أسرع على قمة الجبل منها على سطح البحر، وبالطريقة نفسها تُسرع الساعة في الفضاء قياساً بالأرض. وقد اعترف أينشتاين بضرورة الإقرار بأن نظريته قد تعني إمكان العودة إلى الماضي في ظروف مُعيَّنة. ومن هنا ساد مفهوم (الثقب الدودي) في الثمانينيات والذي تبناه علماء ميكانيكا الكم. إن العلماء يؤكدون أن آلة الزمن ممكنة لكن في اتجاه واحد.. إلى الماضي أو المستقبل. أي أن رحلة الزمن هذه سوف تكون رحلة بلا عودة!

هذه مجرد عينة عن العلاقة المعقدة بين الخيال العلمي من جهة والتطور العلمي الحقيقي من جهة أخرى. ولكن ماذا عن الخيال العلمي في أدبنا العربي اليوم؟

الخيال العلمي في العالم العربي

(أن نأكل الأناناس على سطح القمر) هو تعبير استخدمه أحد طلاب المدارس الابتدائية السوفييت عندما طلب منه الشيوعيون أن يصف رؤياه للمستقبل. والحقيقة أن الطفل لم يدرِ أن الاتحاد السوفييتي كان وقتها يواجه مشكلة حقيقية في توفير الخبز على الأرض.. هذه هي مشكلة النظرة العربية العامة لأدب الخيال العلمي: نحن عاجزون عن تخيل أكل الأناناس على سطح القمر بينما لا خبز لدينا.. هناك ما هو أهم دوماً لدى الكتَّاب من حروب المجرات ومشكلات الروبوت النفسية.. هناك البشر الظامئون إلى الخبز والحرية.. وكما يقول الأديب السعودي أشرف إحسان فقيه: «فكرة العمل القصصي عند المتلقي العربي تقوم على تيمات محددة كالهزيمة السياسية أو الجنس أو تفصيل لواعج النفس والخاطر. وحين تحاول أن تلتف حول أي من هذه الرموز فأنت تخاطر بأن تصنف نفسك إما كدخيل أو كمغامر، واحتمال أن تجد نفسك منبوذاً من قبل سدنة وسطك الثقافي وارد جداً».

يمكننا أن نضيف كذلك أن العقلية العربية بطبعها تنفر من ضرب الأدب الذي يصف نفسه منذ البداية بأنه «خيال».. وكما يقول فاروق خورشيد في كتابه عن «أديب

الأسطورة عند العرب»، فإن الراوي العربي القديم كان بحاجة دائمة إلى إقناع مستمعيه بأن ما يحكيه أحداث واقعية شهدها بنفسه وإلاَّ فقد اهتمامهم.. بالتالي انتحل الرواة قصصاً كثيرة إشباعاً لملكة الخيال عندهم، لكن الجمهور تناقلها كحقائق تاريخية بعد ذلك.

وسط هذا الحصار كان هناك عدد محدود من الكتَّاب العرب الذين احتفظوا بإيمانهم بهذا الضرب من الأدب، وقد حقق بعضهم نتائج معقولة.. قد يرجع البعض جذور أدب الخيال العلمي العربي إلى جذور قديمة جداً مثل «أسطورة حي بن يقظان»، لكننا نحاول هنا أن نكتفي بالنماذج المعاصرة منه، على الأقل بعد ما ظهر مصطلح «خيال علمي» للوجود.

في مصر كانت هناك محاولات متناثرة لتوفيق الحكيم في «سنة مليون» و «رحلة إلى الغد» ويوسف عز الدين عيسى في أعماله الإذاعية التي فقد معظمها للأسف. وفي الستينيات ظهر من كتبوا الخيال العلمي وهم يعرفون ما يفعلون جيداً.. من هؤلاء مصطفى محمود بروايتيه «العنكبوت» (1965م) و «رجل تحت الصفر» (1967م).. ثم نهاد شريف الرائد الأهم في أدب الخيال العلمي، والأديب الوحيد الذي كرس نفسه لهذا النوع من الأدب فحسب، في روايته «قاهر الزمان» (1972م) ومجموعته القصصية «رقم أربعة يأمركم» (1974م) و «سكان العالم الثاني» (1977م) و «الشيء» (1989م) ورواية «ابن النجوم» (1997م). كما كانت هناك العديد من الروايات بقلم صبري موسى وإيهاب الأزهري وأميمة خفاجى التي تحدثت عن الهندسة الوراثية في روايتها «جريمة عالم» التي نشرت في موسكو عام 1990م... وقد استعرضهم يوسف الشاروني بشكل موفق في كتابه المهم «الخيال العلمي في الأدب العربي». كما قدَّم د. نبيل فاروق عدداً كبيراً من العناوين في سلسلة «ملف المستقبل»، ناقش فيها بجدية كل تيمات الخيال العلمي تقريباً، وإن لم ينل رضا النقاد لارتباط كتاباته بسلاسل الجيب التي يصطلحون على اعتبارها ألغازاً.

وفي الجزائر هناك الأديبة صافية كتو التي اعتبرها الناقد التونسي حمدي عباسي سبَّاقة إلى أدب الخيال العلمي بقصصها «المحققة الفضائية» (1967م) و «القمر يحترق» (1968م) و «الكوكب البنفسجي» (1969م). وهناك أحمد عبدالسلام البقالي من المغرب صاحب رواية «الطوفان الأزرق» التي تشابه بشدة رواية «سكان العالم الثاني» لنهاد شريف، وإن صدرت الروايتان في الوقت ذاته تقريباً، ومن لبنان قاسم قاسم «لعنة الغيوم».

ومن السعودية نذكر أشرف إحسان فقيه الذي أصدر مجموعتين من الخيال العلمي هما «صائد الأشباح» (1997م) و «حنيناً إلى النجوم» (2000م)، وقد لاقى الكثير من الإحباط لدرجة أنه فكر في التوقف أكثر من مرة..

وفي سورية لمع اسم الكاتب الدكتور طالب عمران الذي صدر له ما يزيد على 52 كتاباً في هذا المجال، وقدَّم برنامج «آفاق علمية» في التلفزيون السوري لمدة تزيد على 14 سنة، فضلاً عن برنامج «خواطر مدهشة» للإذاعة السورية لمدة 13 سنة.، وقد صدرت دراسة موسعة عن أعماله للباحث السوري محمد عزام.

وعلى مستوى الأديبات تنفرد الأديبة الكويتية طيبة أحمد الإبراهيم عن الأديبات العربيات بكتابة أدب الخيال العلمي، فقد كتبت خمس روايات في هذا المنحى، صدرت الأولى منها في الكويت عام (1968م) وهي «الإنسان الباهت»، كما صدر لها عام (1991م) روايتان هما: «الإنسان المتعدد»، و «انقراض الرجل». وقد كانت أول كاتبة عربية تنبأت بعملية الاستنساخ على الإنسان قبل تطبيقه العملي عام 1997م. كذلك هناك الأديبة لينا كيلاني من سورية ولها ما يزيد على الأربعين عملاً في مجال الخيال العلمي. وغيرهم الكثيرون ممن فاتنا ذكرهم.

وما زال أدب الخيال العلمي يعد بالكثير، لكن علينا في العالم العربي أن نتعلم كيف نحترمه ونهتم به ونقرأه، كجزء من رحلة استعادة الوعي الذي فقدناه كل هذه السنين.

الإنسان الآلي.. الواقع العلمي يلحق بالخيال



Corbis

2

بين الخيال العلمي والرؤية المستقبلية

بقلم: راجي عنايت*

في عام 1974م، وجدت في إحدى مكتبات بيروت كتاباً جديداً لآرثر كلارك بعنوان «تقرير عن الكوكب الثالث وتأملات أخرى». ومن أكثر ما يبهر في هذا الكتاب هو ما جاء في نصفه الثاني من حديث عن الآلة المفكّرة، وعن عصر آلات الإدارة الذاتية وأثرها على العمل والعمالة، وعلى انقضاء مصطلحات ذلك الوقت الاجتماعية والسياسية. وفي فصل التكنولوجيا والمستقبل يقول المؤلف: «بديهي أنه من المستحيل أن نتنبأ بالمستقبل. أنا لم يحدث أن عمدت إلى فعل هذا. الذي حاولت أن أفعله، في كتابات الخيال العلمي وغيرها من الكتابات، هو أن أرسم إطاراً لمساحات لا بد أن يقع المستقبل داخلها».

كان هذا الكتاب باباً واسعاً عبرت منه إلى عالم الدراسات المستقبلية العملية التي تنير الطريق أمام اقتحام المستقبل، وتفتح أبواب التطور، وتسهل الانتقال من عصر إلى آخر.

صعوبة تأطير الخيال العلمي

نتيجة للآفاق الواسعة التي يخوضها القصص العلمي، بفروعه المختلفة، يصبح من الصعب، بل ومن الظلم، أن نسعى إلى محاولة حصر هذا الفرع القديم الجديد من الإبداع الأدبي في تعريف ما. ندرك معنى هذا إذا عرفنا أن القصص التي تدور حول طاقية الإخفاء، التي وردت في ألف ليلة وليلة، يمكن أن تدخل تحت مسمى الخيال العلمي.

* كاتب من مصر

يقول برايان آلديس، الذي يعتبر من أعلام أدب الخيال العلمي، إبداعاً و نقداً، في كتابه حول تاريخ القصص العلمي «أي تعريف للقصص العلمي سيجيء ناقصاً شيئاً ما.. يجب أن تكون التعريفات أشبه بالخرائط: تساعد على اكتشاف الأرض، لكنها لا تكون بديلاً عن جهد الاستكشاف».

أمّا إيزاك آزيموف، وهو واحد من أكثر كتّاب الخيال العلمي شهرة، فيشير إلى «فرانكشتاين» وهو عنوان قصة الخيال العلمي الرائدة التي كتبتها السيدة ماري، زوجة الشاعر الشهير شيلي، قائلاً إن هذه القصة تمثل الموضوع الأثير في قصص الخيال العلمي، من حيث أن الإنسان يصنع ما ينقلب عليه، ويسعى إلى تحطيمه.. وهو يرى أن المبدأ ذاته ينسحب على معظم قصص الروبوت (الإنسان الآلي).. الإنسان يصنع الروبوت، ثم ما يلبث هذا أن يتمرَّد على صانعه.

ونورمان سبينراد، الناقد وكاتب قصص الخيال العلمي، يعتبر قصص الخيال العلمي فرعاً من فروع القصص الخيالي. ويعني بذلك أي نص أدبي يقوم على عنصر تخيّلي.. كل ما يكتب عن الممكن تخيّل وجوده، مع أنّه غير قائم. لكن بريان آلديس يرى أنّه من المستحيل التمييز بين القصص العلمي، والخيال العلمي، والقصص الخيالي. و هو يرى أن أكثر القصص العلمي نجاحاً، هو الذي يجسِّد الإنسان في علاقته بمحيطه المتغيّر، وقدراته المتغيّرة. ومن ثم يرى أن النبض الأساس للقصص العلمي يرتبط بأمرين: التطوّر، والتكنولوجيا.

الابتكار كممارسة شعبية!

وقد نجد من يسأل: هل يصبح الخيال العلمي خطوة محسوبة لتقدَّم علمي، يمكن الوصول إليه؟.



Flickr

فضاء الغد.. لم يعد يثير الدهشة

لا أعتقد أنه لا يمكن الفصل بين الخيال العلمي، والكشوف العلمية، والرؤية المستقبلية.. فهي جميعاً متداخلة، تؤثّر في بعضها البعض.. وتستند جميعها إلى أمر أساس هو القدرة على التفكير الابتكاري.. القدرة على التفكير فيما لا يتم التفكير فيه..

ونحن هنا نميز بين ضروب الابتكار الأدبي والفني، وبين التفكير الابتكاري الذي يعتبر أكثر شمولاً وتميّزاً. فقد كان التفكير الابتكاري في عصر الزراعة والصناعة قاصراً على العلماء النابهين، والمفكّرين اللامعين، والقيادات العليا لأي مجتمع.. يتم التفكير والابتكار عند تلك المستويات، ولا يكون على جموع العاملين من البشر سوى تنفيذ العمليات الإنتاجية القائمة على تلك الابتكارات.. لقد كان السواد الأعظم من العاملين، يحسب ضمن العمالة اليدوية أو العضلية، التي تقوم بتنفيذ عمل محدود، لا يقتضي الكثير من التفكير.

ومع دخولنا عصر المعلومات، وظهور التكنولوجيات غير المسبوقة.. ومع اختراع الكمبيوتر وباقي الأجهزة الرقمية، مثل الروبوت (أو الإنسان الآلي)، تولَّت هذه التكنولوجيات جميع الأعمال النمطية المتكررة البسيطة التي كانت تقوم عليها حياة السواد الأعظم من العمالة العضلية، في المصنع والمكتب.. وقامت الآلة بها بشكل أكثر دقّة وكفاءة واقتصاداً من الإنسان.

وهكذا، لم يبق أمام الإنسان إلاّ العمل العقلي المعرفي.. أصبحت مسؤولية العامل تكمن في التفكير في حلّ المشكلات، واستكشاف الحلول المبتكرة التي يحل بها المشكلات، ثم تطبيقها، ومراقبتها.. وهذا يدخل جميعه في نطاق التفكير الابتكاري.. وهنا يكمن جوهر أزمة البطالة الشائعة في العالم، وبخاصة في الدول المتطورة تكنولوجياً.. وهي التي يطلق عليها تعبير «البطالة البنيوية»، والتي تستدعي ثورة في مجال العمل والعمالة، أداتها التأهيل والتدريب وإعادة التدريب.

المهم.. أن التفكير الابتكاري يصبح بهذا ممارسة شعبية.. وبالنسبة لموضوعنا هنا، يمكننا أن نتصور أثر هذا، على شكل المزيد من النجاح والانتشار والازدهار لأدب الخيال العلمي.

3 جرجي زيدان.. جول فيرن العرب

إعداد: إبراهيم العريس*

الأسطورة وحكايات الشعب

عرف الكتَّاب العرب سواء أكانوا من أصول عربية أو من أهل الثقافة العربية، وبالتضافر خاصة مع الخيال الشعبي، كيف يسبقون جول فيرن واتش دجي ويلز بقرون وقرون في مجال الحديث عن مناطق مجهولة آهلة بالسكان أو خيالية منهم. عن غوص في أعماق عوالم مأهولة هناك واستكشافها، عن الطيران والأسلحة الفتاكة المعاصرة، عن التركيبات السياسية المستقبلية. بل حتى عن شاشات سحرية تظهر الحاضر والماضي والمستقبل لمن يتفرس فيها. إن هذا كله قد يبدو للوهلة الأولى، خلاصة فكر أسطوري (شعبي) متراكم عبر الأزمنة وآتٍ من آداب وأساطير شعوب مختلفة. غير أن تفرساً مدققاً فيه، ودراسات معمقة لبعض أبرز نماذجه (حكايات عديدة في ألف ليلة مثل حكاية التاجر والعفريت، حكاية الخادمة تودد؟ ورحلات السندباد وحكاية علاء الدين وصولاً إلى سيرة سيف ابن ذي يزن وغيرها، من دون أن ننسى «خيالات» الرحالة العرب حين يصفون مناطق وشعوباً زاروها ورووا عنها الأعاجيب، ثم إنجازات العلماء العرب في كل المجالات، إنجازات واقعية مهّدت لاختراعات أتت على الصعيد العالمي متأخرة عنهم قروناً). هذه الدراسات المعمقة كفيلة بأن تضعنا مباشرة في صورة أحدث تعريفات استشراف المستقبل. وإذا كان قد طلع في القرن العشرين مفكرون يقولون إن معظم الاختراعات العلمية والاكتشافات في هذا القرن إنما تبدو تطبيقاً لمبتكرات خيال جول فيرن وزميله الإنجليزي ويلز. فإن في وسعنا أن نقول أيضاً إن جزءاً كبيراً مما عرفه العالم خلال نصف الألفية الأخيرة، إنما يبدو وكأن له جذوراً في مبتكرات خيال الكتّاب العرب.

> السفر من القاهرة إلى الإسكندرية بالطائرة أما إلى أوروبا فبالبالون!

توقعات جرجي زيدان

ونحن في الحقيقة يمكننا أن نطيل زمن هؤلاء الكتَّاب، لنصل به، حتى إلى مشارف القرن العشرين، متوقفين هنا مع كاتبنا العربي الكبير، ومبتدع روايات تاريخ الإسلام، جرجي زيدان، لنجد كيف أنه، من خلال استفتاء أجري معه قبل إطلالة القرن العشرين بسنة أو سنتين، قدَّم صورة عن استشراف المستقبل تكاد تجمع بين أساليب التحليل لدى سابقيه من المؤلفين العرب وبين الغائصين في لعبة استشراق المستقبل من كتَّاب أوروبا والعرب عموماً. مع ملاحظة أن هذا الاستشراف يبدو لديه، مقصوداً ومباشراً، على عكس ما كانت الحال بالنسبة إلى أسلافه. واستشراف المستقبل هذا، بقلم جرجي زيدان، لم ينشر في ذلك الحين، بل بقي حبيس أوراق زيدان. وهنا بعض أبرز فقراته علماً بأن الموضوع كان يتمحور حول القرن العشرين وما سيستجد فيه من مخترعات وفنون وعلوم ونظم وأوضاع. يقول زيدان:

في الدول وأحوال مصر والعرب

- يقرر كثير من المفكرين السياسيين أن عهد الدولة الصغير انقضى، وأن المستقبل سيشهد نظام تكتل الدول الذي يدمج الدول الصغيرة المتقاربة في أجناسها وأصولها وأوضاعها في كتل كبيرة وهكذا: يتحد الناس بعد مائة سنة، حسب الأجناس في دول قليلة مثل «دولة اللاتين» و «دولة الجرمان» و «دولة الروس»، وتكون الصين واليابان دولة واحدة. ويرى زيدان أنه مع نهاية القرن العشرين تنقلب جمهورية فرنسا وتصير ملكية وتصير ألمانيا جمهورية لانتشار الاشتراكية فيها. وكذلك تنقلب الولايات المتحدة من الجمهورية إلى الملكية. وتتم الجامعة العربية بين الشعوب العربية، لكن الوحدة العربية لا تتم في القرن العشرين بل في القرن الذي يليه. أما بالنسبة إلى مصر فإنها ستصبح حكومة نيابية وفيها مجلس يمثل كل ما فيها من الملك والأجناس. والأزهر سيدرس كل العلوم واللغة الإنجليزية. وللسيدات سيكون هناك نادٍ يحمل اسم «نادي قاسم أمين». وسيكون السفر بين القاهرة والإسكندرية بالطائرة، وبين مصر وأوروبا بالبالون. وفي القاهرة سيقوم مستشفى للراديوم يعالج أمراض السرطان أما المنازل فستبنى على الطراز الفرعوني. ويقوم بجوار الأهرام فيلا من هذا الطراز تعرف «بفيلا فرعون». وتكثر الواحات في صحراء مصر. وتقوم في مصر بكثرة مصارف وطنية يقبل المسلمون على التعامل معها.
- بالنسبة إلى زيدان سيبلغ عدد سكان مصر العام 2000م، 25 مليون نسمة. وسيقوم دكتور عالم بالبحث عن ميكروب الفرح وميكروب الحزن. فيما سيقوم طبيب آخر بعملية نقل أعضاء الجسم البشري من شخص إلى آخر. وستصدر جريدة عربية يعرف المشترك فيها أخبارها لا بقراءتها بل بطريق التلفون.

* كاتب صحافي من لبنان

ويجلس المرء في بيته مع زائريه ويشاهد ويسمع التمثيل بالسينماتوغراف الناطق.

- بين الإسكندرية ورأس الرجاء الصالح سيسافر الناس بالسكة الحديدية الكهربائية. ومن القاهرة إلى طوكيو سيسافرون بالبالون. وسيعثر العلماء في أرض اليمن على مدينة قديمة ذات صلة بالحضارة الفرعونية.
- ينشأ في مصر مجمع علمي يطلق عليه اسم «مجمع البحث عن مفاخر الشرق القديم».
- في مجال الحياة الاجتماعية يرى جرجي زيدان أن الزواج سوف يكون بالتراضي بين الزوج والزوجة، وبعقد مدني يجوز إلغاؤه. وسيتوجب على الشاب والفتاة أن يقدما عند الزواج شهادة طبية تثبت خلو كل منهما من الأمراض. ولن يتم الزواج إلا بعد تقديم هذه الشهادات. كما أن الحكومة ستنشئ مختبراً خاصاً لفحص الشبان والفتيات مرّة في كل سنة. وتقيد نتيجة الفحص في سجلات الحكومة حتى يعرف الطبيب عند إعطاء الشهادة الأمراض التي تعرضوا لها.

توقع إجراء العمليات الجراحية منزلياً، ونفاد موارد الطاقة، وخطط الطائرات

الحكومة والمجتمع

- الحكومة هي التي تتولى، عند نهاية القرن العشرين وفي رأي جرجي زيدان، كل الأعمال العامة على المبدأ الاشتراكي، حيث يدفع كل إنسان مبلغاً ينفق منه على المصلحة العامة. والمدارس سوف يتعلم منها التلاميذ كافة العلوم، حتى الطب والقانون، وإن لم يكن القصد تخريجهم أطباء أو قانونيين.
- وستنال المرأة حريتها من الخروج إلى الأسواق والتعلم والتوظف والمتاجرة، بل إنها ستصبح جندية تقاتل كالرجال.
- وبالنسبة إلى زيدان لن ينطبق هذا على مصر وحدها بل على العالم كله، هذا العالم الذي سوف يتكلم مع نهاية القرن العشرين لغة واحدة وسيتداول نقوداً موحدة. أما بالنسبة إلى البريد فإن الطوابع التي سوف تستخدم فيه طوابع دولية. وتكون الرسائل مثل أسطوانات الفونوغراف، حيث يسمع المرء صوت صاحب الرسالة المرسلة إليه.
- أما الملابس فتتألف في أغلب الأحيان من كساء بسيط وصندل في الرجل وقبعة على الرأس للوقاية من الشمس.
- تقام المساكن في الهواء الطلق وتكون بسيطة التركيب قليلة الأثاث. وتغرس حولها الأشجار ذات الزهور والثمار النافعة للصحة. وفي كل بيت سيكون هناك غرفة للتلفون بلا سلك. ويمكن بواسطته محادثة الناس ورؤيتهم كذلك. أما مطبخ البيت ومغسله فيداران بالكهرباء. وفي مجال الطعام سيكون هناك رجوع إلى الطبيعة، أي الإكثار من أكل الخضار والفاكهة والتقليل من تناول اللحوم.
- والرياضة لا يكون بد منها، رياضة بدنية مدة معينة كل يوم. أما الإنسان فإنه سوف يعمل نصف النهار، ليمضي النصف الثاني في النزهة والقراءة.
- في المجال التجاري سوف تكون دكاكين التجارة مملوكة لجمعيات تعاونية يشترك فيها كل رجل وكل امرأة بسهم أو عدة أسهم. وتتصل هذه الحوانيت بالمنازل بواسطة تلفون بلا سلك. وستنار المدن بالمصابيح الكهربائية، وذلك على نفقة الحكومة. أما البيوت فتنار كذلك بالكهرباء ولكن على نفقة سكانها.

الطبابة وزرع الأعضاء

- والمجرمون سوف يعاملون بالتطبيب في المستشفيات، لا بالحبس في السجون. في الوقت الذي سوف يعدل فيه الطب عن العقاقير إلا في حالات قليلة. أما العلل الداخلية فسوف يتم كشفها عن طريق أشعة «رونتجن»، فيرون الأعضاء والأحشاء واضحة وكل ما يصيبها ظاهراً. وتجري العمليات الجراحية بكل يسر وسهولة. ويجريها الناس في منازلهم لبعضهم البعض. أما طبيب العائلة فيبقى مرتَّبه محسوب لطالما لم يكن في العائلة مريض، فإذا أصاب أحد أفرادها المرض انقطع مرتبه حتى يشفى المريض.
- وسيكون العلم قد اكتشف لكل مرض جسمي أو نفسي مكروباً. فللفرح ميكروب وللحزن ميكروب وكذلك الحال للذكاء والغباء، والإخلاص واللؤم، والنشاط والكسل، إذ لكل حال من هذه الحالات ميكروب. كذلك سيكون العلم قد وجد لكل مرض مصلاً شافياً، حتى أمراض النفس مثل الحب والبغض. وجدوا لكل منها مصلاً يعالجها ويشفيها.
- في الوقت نفسه يستمر العلم في البحث عن وسيلة لإطالة الحياة باستبدال الأعضاء التي هزلت وشاخت بأعضاء أخرى قوية أو شابة. وقد رضي أحد العلماء أن يضحي بنفسه ليجري زملاؤه عليه إبدال أعضاء.



خطف الطائرات ونفاد موارد الطاقة

- وبالنسبة إلى الأدب، الذي كان عالم جرجي زيدان المفضل، سيقبل الناس على قراءة رواية بطلها مكتشف جديد لمادة تطيل الحياة، واستخرجت

بواسطة أشعة الراديوم ووجدوا لها تأثيراً على الأحياء، فصنعوا منها مصلاً سموه «مصل الحياة».

- وفي انتقال من الأدب إلى الفن رأى زيدان أن الملاهي ستقام خارج المدن وتكون نشاطاتها على نفقة الحكومة. وتتقاضى هذه مقابل ذلك من كل فرد ضريبة سنوية تتيح له التفرج على كل الملاهي.
- وللمواصلات سوف تبنى طائرات عملاقة كالبيوت، فيسكن فيها الإنسان حتى وهي رابضة على الأرض لتطير به عند الحاجة حاملة جميع أفراد أسرته ومن يريد من الأصدقاء فضلاً عما تحمله من معدات المنزل والسكن. وفي هذه الطائرات أجهزة التلفون والتلغراف بلا سلك. وفيها المرآة السحرية التي يرى فيها الراكب، المشاهد البعيدة. وتُخترع مادة ترمى بها الطيارة من بعد، فتوقفها عن السير لتمنع فرارها بالهاربين إن سرقوها يوماً وهربوا بها.
- وأخيراً، إذ تفرغ الأرض من الفحم الذي يستخدم وقوداً، يستخدم الناس حرارة الشمس بدلاً منه، وكذلك يستخدمون الرياح في توليد القوى المحركة.

فأيهما الأكثر؟ ما تحقق من توقعات جرجي زيدان، أم ما لم يتحقق؟

جرجي زيدان.. خيال علمي تناول السياسة والطب والطائرات.. وخطفها!



إعـارة الكتـب..

لا بـد لكل صاحب مكتبـة مهما صغر أو كبر شأنها أن يواجه ما بين الحين والآخر قضية إعارة كتاب منها لشخص يطلب ذلك. فإن ضنّ بإعارته قاسى مرارة الاتهام بالبخل وحبس العلم، وإن قَبِل انتابـه شعـور -مبرر في أحيانٍ كثيرة- بفقد كتابه نهائياً. هذه القضية قديمة قِـدَم ظهـور الكتـب والمصنّفـات. الدكتورة خديجـة عبدالله سـرور الصبّان* تعرض مواقف الشعـراء من هذه المسألة، متناولـة انقسامهم حولها وبعض ما قالوه في هذا الشأن، والكثير منه لا يخلو من الطرافة.

اتفق القدماء على أنَّ إعارة الكتاب لمن يطلبه واجبة، لكنَّهم انقسموا حيال التنفيذ إلى فريقين: فريق رأى ضرورة تنفيذ ذلك الواجب لأسباب ذكرها، والفريق الآخر رأى الضنَّ مع الوجوب أسلمَ له وأحفظَ لكتبه. ولنستعرض بعض ما جاء عنهم: قال أبو وهب محمَّد بن مُزاحم: أوَّل بركة العلم إعارة الكتب. ورُوي عن يُونُسَ بن يزيد أنَّ الزُّهريَّ قال له: يايُونُس: إيَّاك وغُلُول الكتب، فسأله: وما غُلولُ الكتب؟ أجابه: حبسُها عمَّنْ يطلبُها. ورُوي أنَّه أتى أبا العتاهية أحد إخوانه، فقال له: أعِرْني دفتر كذا وكذا، فقال أبو العتاهية: إنِّي أكرهُ ذاك، فقال له المستعير: أمَا عَلِمْتَ أنَّ المكارمَ موصولةٌ بالمكاره؟! فدفع إليه الدَّفتر. وأنشد أبو الكريم الحوري:

كُـتْـبـي لأهــل الـعـلـم مـبـذولـةٌ
أيـديـهُـمُ مـثـلُ يَـدِيَّ فيـهـا
مـتـى أرادوهـــا بـــلا مِـنَّـــةٍ
عـاريــةً فَـلْـيـسـتـعـيـروهـا
حـاشـايَ أن أكـتُـمَـهـا عـنْـهُـمُ
بُـخْـلاً كـمـا غـيـري يُـخفيـهـا
أعـارَنـا أشـيـاخُـنـا كُـتْـبَـهُـمْ
وَسُـنَّـةُ الأشـيـاخ نُـمضيـها

ذلك هو موقف الفريق الأوَّل: الدَّفع مع الكراهة.

أما موقف الفريق الثاني -وهو الذي رأى الضَّنَّ مع الوجوب أسلم-، تكشفُ عنه أبياتٌ مجموعة من الشعراء أعلنوا فيها رفضهم القاطع لإعارة الكتب، مع عرضهم للأسباب التي دفعتهم لاتخاذ ذلك الموقف. قال مسافرُ ابنُ محمَّد البَلْخي:

أجــودُ بِـجُـلِّ مـالـي لا أُبـالـي
وأبـخَـلُ عـنـد مـسـألـةِ الـكـتـابِ
وذلـك أنَّــنــي أفـنـيـتُ فـيـه
عـزيـزَ الـعُـمـر أيَّـامَ الـشَّـبـابِ

وأنشد الأميرُ سعد منصور بن محمَّد العَاطِيَ، يقول:

لا تَـسْـتَـعِـرْ شـيـئـين مِـنِّـي صـاح
وسِـواهُـمـا فـاطْـلُـب تَـفُـزْ بنجاحِ
أمَّـا الـكـتـابُ فـإنَّـه لـي مُؤنـسٌ
وإعـارةُ الـمـركُـوبِ فـهْـوَ جَـنـاحي

وقال بعضهمُ :

لا تُعيـرنَّ دفـتـراً | لا بـوجـه ولا سببْ
كـمْ كتـابٍ أعـرتُـهُ | زعـمـوا أنَّـه ذهـبْ
فـإذا مـا طلـبـتُـهُ | أوْجَبَ الصَّدَّ والغضبْ

وبالنظر في الأسباب المذكورة في الأبيات السابقة -وهي التي حملت هذا الفريق على رفض الإعارة رفضاً قاطعاً- نرى أنها لا تختلف عن الأسباب التي يعانيها المعيرون في عصرنا الحاضر، على الرُّغم من بُعْد الشُّقة واختلاف طبيعة القرّاء وظروف ووسائل انتشار الكتب، وهي تتراوح ما بين المماطلة، والغضب من مطالبة صاحب الكتاب باسترداده، وعدم الرّدِّ بحجة أن الكتاب قد فُقِدَ.

* كاتبة سعودية

البحث عن حل: الرهن؟

تلك هي مواقف القدماء من القضية وأسبابها، فما هي طُروحاتهم لحلِّها؟؟

رأت جماعةٌ من أصحاب الكتب الحلَّ في إسداء النُّصح إلى المستعيرين علَّه يَردُّهم إلى الجادَّة فينالوا بُغيتَهم ويحفظوا حقوق المُعِيرين، أنشد الحسنُ بنُ علي لبعض أصحابه:

أيُّها المستعيرُ مِنيِّ كتاباً
ارْضَ لي منه ما لنفسك ترضى
لا ترى ردَّ ما أعَرْتُك نفْلاً
وترى ردَّ ما استعرْتُك فرضا

وأنشد أبو محمَّد بنُ نصر السُويدي -وهو من أهل أذربيجان- حاثاً على الإعارة لما لها من فضل، وعلى حُسن الرّدِّ لما له من أثر حسن على ديمومة تلك الفضيلة:

أعِرْ صديقكَ ما حصَّلتَ من كُتبٍ
تَفُزْ بشُكرِ أريجِ النَّشْرِ عن كثبِ
فإنْ أعاروكَ فارْدُدْها على عجلٍ
حتَّى تُعارَ بلا مَنْعٍ ولا نصبِ

ورأت جماعة أخرى أن يجيء الحل عملياً، فاستحسنوا أخذ الرهن على ما يُعيرونه من كتبهم، وقالوا الأشعار في ذلك، قال محمَّد بنُ خَلَفٍ بنُ المَرْزُبان:

أعِرِ الدَّفترَ للصاحبِ بالرَّهْنِ الوثيق
إنَّه ليس قبيحاً أخذُ رَهْنٍ مِنْ صديق

وأنشد عليُّ بنُ أبي بكر الطِّرازي:

يامستعيرَ كِتابي لا تُكثِرنَّ عِتابي
إلَّا برَهْنٍ وثيقٍ من فضَّةٍ أو ثيابِ

وأنشد أبو الحسين بن الطُيوريُّ لبعضهم ببغداد:

جلَّ قدرُ الكتاب ياصاح عندي
فهو أعلى منَ الجواهر قدرا
لستُ يومًا مُعيرَه من صديق
لا ، ولا مِنْ أخٍ يُحاول غدْرا
ما على مَنْ يصونه مِنْ ملام
بل له العُذْرُ منه سِرًّا وجهْرا
لنْ أعيرَ الكتاب إلاَّ برهْنٍ
مِنْ نفيسِ الرُّهونِ تِبْرًا وَدُرا

وذلك الحل العملي المقترح (أخذُ الرهن) يصطدم بنظرة غير إيجابيَّة من البعض إليه، خاصة إذا كانت العلاقة التي تربط المُعير بالمستعير شديدة الوثوق؛ إذْ سيُنظر إلى طلب الرهن على أنه دليلٌ على عدم الثقة، وهو ما سيُلقي بظلاله القاتمة على تلك العلاقة لوماً وعتاباً إلخ.

ولتعضيد موقف أصحاب هذا الحل، ورفع الحرج عنهم نعرض القصة التالية، ففيها ردٌ مُقنع على أصحاب تلك النظرة غير الإيجابية إلى أخذ الرهن، «رُويَ عن الأصمعيِّ أنَّه قَدِمَ عليه صديقٌ من خُلَّص أصدقائه يستقرضه مالاً، فقال الأصمعي: «أفعلُ وكرامةً، ولكنْ سكِّن قلبي برهنٍ أو كتاب (سند استلام)»، فقال الصديق: «يا أبا سعيد، ألستَ واثقًا بي؟!» أجابه: «بلى، ولكنْ هذا خليلُ الله كان واثقاً بربِّه حين قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، (البقرة: 260)».



المحترف السعودي

في رحاب أُمّ القرى

أأمَّ القرى
أدخليني فضاءً جديدا
إذا ذابَ وجهُ الفضاء بعيني
وأمسى جليدا
إذا ما تكلّس حولي الفضاءُ
وأضحى زجاجاً، وبيدا
فعاصمةُ الكون أنت
سموقُ استطالاتهِ
منذ كنتِ
أراكِ !! فتلتفُّ روحي
وتشرقُ بي طائرًا
أتنسَّمُ فوق روابي القرون
العهودا
تقاصرُ دونكِ كلُّ الذّرى
والجهاتُ تمدُّ القوادمَ
كالطير تأتي وفوداً وفودا
ووجهُ الزمان بكفّيكِ صلّى
وشدَّ المواقيت
طفلاً وليدا !!

سماؤكِ لؤلؤةُ الروح
فياضةٌ بالهديل المعبَّأ
بالنور بين الحناجر
وأرضُكِ حنّاء طُهرٍ
ترتقُ جلد الخلايا
ترقرقُ فوق حرير الزمان
بنهر الصفاء
فتطفئ جمر الغضا
والرّمال تضيء
فلا يسكنُ الرّوعُ والحزنُ
والاحتراقُ المشاعر
أجيئكِ كالطفل
يهتفُ بي النّهرُ
والأنجمُ الثاقباتُ
يصلي الكيانُ
تُصافحني بالمدى الأمسياتُ
تهزُّ انطلاقي
فأعلو وأعلو بساقي
وأرمي وثاقي
فأستافُ صفو العبير
أشمُّ ملابَ الأثير/
عروقَ النضارةِ/ موجَ الحرير
صلاةَ الزمان الطليقِ
وشمسَ البشائر
تعلو بها السارياتُ
أكاد أطيرُ، يحلّقُ بي
في البعيدِ، البعيدُ الرفاتُ
أشمُّ به من أقاموا الحياةَ
حياةً وفكّوا عن الأرض
قيداً وأعطوا إلى العالمين
الزمانَ الوليدا !!

ديوان الأمس ديوان اليوم

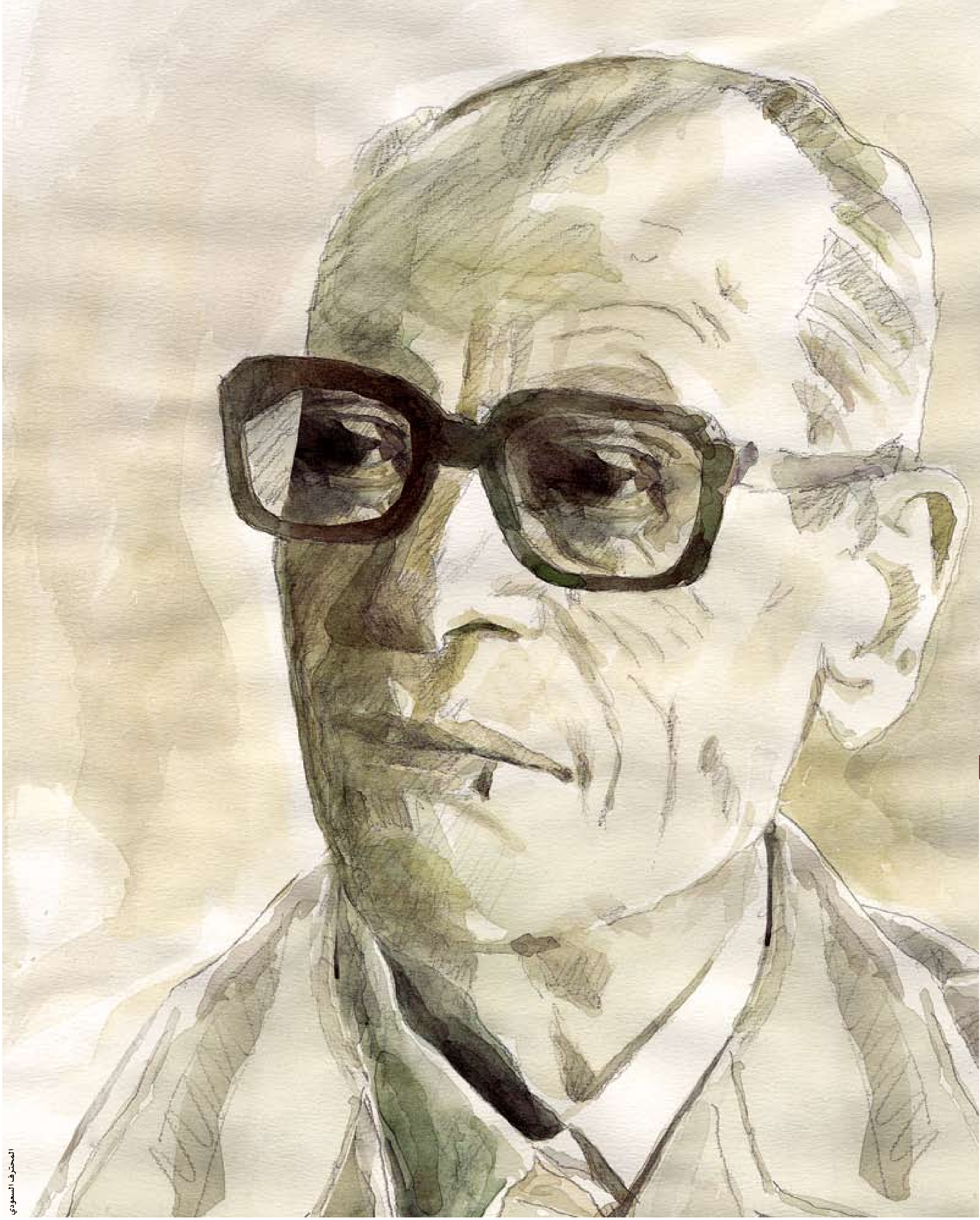
شعر: أحمد عبدالحفيظ شحاته

أُمّ القرى

سأسكتُ حين أُكلِّمُ عينيك
حتى تطيشَ عن الروح
هوجُ السهام
فكم ذا يطيبُ السكوتُ
لديك
وكم ذا يطيبُ الكلامُ !!

هنا خطوُ جبريل والآي
في كفِّه
هنا دورةُ النور في مجتلاه
وفي عنقه
هنا يلبسُ الحلمُ تاجَ السلامِ
من الركن والمشعرينِ
وحِجر المقامِ
هنا نهرُ نورٍ سرى فاستقام
وأطلق فجراً
فقامت به الأرضُ
عصفورةً من ضياء
وحوريةً من رجاء
تُسبّحُ طوّافةً
وراء خُطى
رسمتْها الملائكُ والأنبياء!!

هنا البيتُ والقبلةُ الطاهرة
ببكّةَ أم القرى
أمانِ الخلائقِ من كل جنس
طوتْ خطوةَ الزّيفِ
في الأعصرِ الغابرة
وبكّتْ عن الحوضِ
حلْمَ العصاةْ
فضاءتْ بأرجائها
سجداتُ الهداة
وتهويمةُ الأنجمِ الزاهرة
تجلّتْ فجلّتْ رحاباً ودارا
حمى اللهِ صارتْ
فطُوبى لمن طافَ
طُوبى لمن راح يسعى
وطُوبى لمن عاش فيها
ومن صار .... جارا !!



المحترف السعودي

..ويبقى من نجيب محفوظ الكثير. ويبقى اسمه لطالما بقي هناك حديث عن الأدب العربي في القرن العشرين.

وعلى الرغم من طوفان المقالات التي تناولت أديبنا العربي الكبير يوم حاز جائزة نوبل للآداب، والطوفان الثاني منذ انتقاله إلى المستشفى حتى ما بعد انتقاله إلى جوار ربه، تبقى سيرة هذا العملاق وأدبه وآثاره أكبر من أن تُستنفد سرداً ونقداً وتقديراً.

الناقد جهاد فاضل*، الذي عرف نجيب محفوظ عن قرب، يروي لنا صفحات من علاقة الأديب الراحل بعصره بدءاً من ثورة 1919م وحتى ما بعد فوزه بجائزة نوبل للآداب في عام 1988م، مؤكداً أن الروائي نجيب محفوظ كان بالفعل الراوي العبقري لمصر وللعرب جميعاً.

ما الذي بقي من نجيب محفوظ؟

في خريف 1988م، وبعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، التقيت في القاهرة الدكتور يوسف إدريس فقال لي إنه أجدر من نجيب محفوظ بالجائزة لأسباب كثيرة، وإنه لو فاز بها لحولها إلى أداة للنضال ضد الإمبريالية والاستعمار، في حين أنهم عندما أعطوها لنجيب محفوظ، فقد أعطوها في الواقع لميوله السياسية.

وأضاف: «إن من المتعارف عليه في كل مكان أن الرواية هي «فن المدينة»، ولكن نجيب محفوظ حوّلها إلى «فن الحارة»... ثم أن روايته بوجه عام رواية بلزاكية تقليدية في العمق، لا رواية حديثة أو فنية..».

على أن يوسف إدريس لم يكن وحده يومها في مثل هذا النقد القاسي والجائر لتجربة نجيب محفوظ، وهي تجربة تضع صاحبها ليس فقط في موقع المؤسس للرواية المصرية والعربية، بل وأيضاً في موقع المطور لهذه الرواية، والبالغ بها قمماً عالية بالمقارنة مع الرواية

* ناقد من لبنان

الحديثة في العالم. فهناك كثيرون حاولوا النيل مما صنعه محفوظ، منهم على سبيل المثال، الدكتور لويس عوض الذي لم يَرَ في روايات محفوظ، سوى أنها «وصف» آخر لمصر، على غرار كتاب «وصف مصر» الذي وضعه مثقفون وباحثون فرنسيون رافقوا حملة بونابرت على مصر. فالواقع الذي لا يختلف عليه أحد أن من العسير فهم مصر وتاريخها الحديث خلال القرن العشرين كله، وهو قرن مليء بالأهوال والأحداث الكبرى، من دون أن نقرأ نجيب محفوظ، حتى لو قرأنا مئات الكتب في التاريخ والسياحة والاقتصاد، وغير ذلك. ولكن هذا شيء، والقول إن نجيب محفوظ كان مجرّد «وصّاف مصر» شيء آخر. لقد كان فعلاً هذا الوصّاف، ولكنه كان وصّافاً فذّاً، ولدرجة القول إنه لو جرى حذف أدب نجيب محفوظ من المكتبة العربية المعاصرة لفقدت هذه المكتبة ركناً أساساً فيها لا يمكن لأي ركن آخر فيها أن يعوضه..

لم تكن «الحارة» التي اهتم بها نجيب محفوظ وآخذه على اهتمامه بها يوسف إدريس، مجرد حي من أحياء القاهرة

القديمة، كالجمالية، قلب القاهرة القديمة التي تربى فيها محفوظ، وإنما كانت صورة حيّة لمجتمع مصر في صراعاته وتطوراته المختلفة مع كل جديد في الحضارة الحديثة. «فالحارة» تصبح صورةعن المجتمع، بل صورة للعالم كله وما فيه من أفكار ومصائر وصراعات. وهذا ما نجده بوضوح في روايتين من أهم روايات محفوظ هما «أولاد حارتنا»، و «الحرافيش» التي يعتبرها كثيرون من النقّاد ملحمة روائية بالغة القيمة والمتعة.

الحارة عند محفوظ لم تكن مجرد حي بل صورة حية لمجتمع مصر وتطوراته

الوفدي والسلام

ولم يكن اتهام يوسف إدريس، أو سواه، لنجيب محفوظ بالدعوة إلى السلام كسبب مهم لمنحه جائزة نوبل، بالاتهام الذي صمد مع مرور الزمن. فقد تهاوت هذه التهمة كما تتهاوى أية تهمة لا تستند إلى أساس سليم. ذلك أن محفوظ مُنح الجائزة لعدة أسباب منها كفاءته ومنها مصريته. لقد كانت الجائزة بمثابة التحية لعبقرية القصة ولعبقرية المكان، على حد تعبير جمال حمدان، أي التحية لمصر ونهجها المعتدل في بيئتها ومحيطها. وقد لا يعلم كثيرون أن نجيب محفوظ الذي عاش نصف عمره في مصر الملكية ونصف عمره الآخر في مصر 23 يوليو، كان وفدياً متعصباً للوفد، أي وطنياً منحازاً بلا حدود إلى الحركة الوطنية في بلاده. وإذا كان قد دعا يوماً إلى انخراط مصر والعرب في عملية السلام، فهناك كثيرون رأوا رأيه، ولم ينقص هذا الرأي من وطنيتهم.

وقد لا نبالغ إذا قلنا إن نجيب محفوظ، سواء كإنسان أو كروائي، كان عاشقاً خالداً لمصر. وهذا ما يتبدّى بوضوح في رواياته. وقد قال لي مرَّة إن سعد زغلول كان مثله الأعلى، وإن وفديته سترافقه إلى قبره. أي أنه رغم كل ما حصل في مصر منذ 23 يوليو وصولاً إلى وقتنا الراهن، فقد ظلَّ وفياً إلى ثورة 1919 وقيمها ومبادئها. ولا شك في أن كل من قرأ رواياته يعيش مذاق مصر الحقيقي، ويضع يده على مفاتيح الشخصية المصرية، ويدخل بها إلى خفايا الروح الأصلية لمصر.

وقد ذكر نجيب محفوظ مرة أن الصهيونية لو أرادت أن تكافئ كاتباً على موقف تشجعه هي، فقد تضع في يده، أو في حسابه بالبنك، مبلغاً من المال على سبيل الرشوة، لا أن تسعى في حصوله على جائزة أدبية هي الأولى في مجالها في العالم. «ولو كانت جائزة نوبل جاءتني لموقفي من معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، فإن بالجائزة فرعاً آخر يناسب هذا الموقف، وهو جائزة نوبل للسلام وليس الأدب. بل إدونيس أو توفيق الحكيم يستحقّانها. فهما مؤيدان للسلام مع إسرائيل أكثر من تأييدي أنا له عشرات المرات»!

ووصف نجيب محفوظ نفسه مرة بأنه من براعم ثورة 1919م. «فإذا كان للثورة رجالها الذين قادوها، وشبابها الذين اشتركوا فيها، فأنا من البراعم التي تفتحت وسط لهيب الثورة وفي سنوات اشتعالها، ولم يكن عمري حين قامت ثورة 1919م يزيد على سنوات سبع». ولكن نجيب محفوظ لم يكن «بتاع» سلطة أو سياسة. فلم تكن السلطة في يوم من الأيام هدفه ومأربه، وذلك لسبب بسيط، هو أنه لم يكن يستطيع الجمع بين السلطة والأدب. فالأديب الذي يقدِّس مهنته ويعشق قلمه، يفضِّل أن يبتعد عن السلطة بهمومها ومتاعبها والتزاماتها. وفي خلال المدة التي عمل فيها بمؤسسة السينما -وتبلغ حوالي عام ونصف العام- لم يقرأ أو يكتب كلمة. وكان كل وقته محصوراً في الوظيفة وما يتصل بها من متاعب وقيود.

مع السلطة.. مدّ وجزر

وعندما تزوج في عام 1954م بعد أن ظل لسنوات عازفاً عن الزواج، بسبب تفرغه للأدب، توقع العديد من أصدقائه أن تتراجع جرأته في تناول قضايا المجتمع، وتقل شجاعته في نقد الأخطاء والسلبيات خوفاً على أسرته. كما توقعوا أن تدفعه مسؤولياته العائلية الجديدة إلى أن يكون مسالماً وبعيداً عن الصدام مع السلطة الجديدة، سلطة عبدالناصر ورفاقه. ولكن توقعاتهم خابت. فقد ازدادت كتاباته عنفاً وجرأة. ولهذا الأمر أسبابه، ويأتي على رأسها أنه عندما كان يمسك بالقلم، كان ينسى كل شيء: خوفه، مسؤولياته، وأسرته، وحتى نفسه. ثم إن انتقاداته كانت موضوعية ولا تحيط بها أية شبهات. وكان يقول: «إن ثورة يوليو أدركت تمام الإدراك أنني لست من بين خصومها، وقد أعلنت عن تأييدي للكثير من القرارات التي اعتبرت وقتذاك أنها سلمية وحتمية مثل تأميم القناة، ومجانية التعليم.. فأنا إذن لم أكن ضد النظام، وكنت في «نادي القصة» أعمل مع يوسف السباعي أحد رجال النظام، وأعمل مع محمد حسنين هيكل في «الأهرام». وفي عهد الثورة حصلت على جائزة الدولة في الآداب عام 1957م. كما منحني الرئيس عبدالناصر وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى وقد تسلمته منه شخصياً.

قصص «تودي في داهية»

على أن علاقاته مع ثورة يوليو لم تخلُ من متاعب كادت توصله أحياناً إلى حافة الخطر. فقد انتقد غياب الديموقراطية في مصر في تلك الفترة. إذ نشر مرة في «الأهرام» قصة بعنوان «سائق القطار». وبعد النشر سرى همس في أوساط المثقفين أنه كان يقصد عبدالناصر. وتدور القصة حول سائق قطار يفقد صوابه، ويتسبب في حادث مرور مروِّع. كان التفسير الذي أعطي للقصّة هو أن نجيب محفوظ يشير إلى أن عبدالناصر يقود مصر

إلى الكارثة.. وكادت الكارثة تحلّ بمحفوظ لولا أن محمد فريد أبو حديد رئيس تحرير مجلة «الثقافة» (الذي لم يكن يعرفه) كتب مقالاً في مجلته توصل فيه إلى أن كاتب القصة يرمز إلى الصراع بين الشرق والغرب!

ويقول نجيب محفوظ إنه حمد الله لأن محمد فريد أبو حديد توصل إلى هذا التفسير فشعر بالراحة لأن المقال أزاح عن صدره هماً ثقيلاً، لدرجة أنه -وبشيء من الحماقة- اتصل به لكي يشكره، دون أن يلتفت إلى أنه بهذا الاتصال الهاتفي يؤكد التهمة!

عاش نصف عمره في مصر الملكية والنصف الآخر في الجمهورية.. وظل وفدياً حتى الموت

أما الورطة الثانية -زمن ثورة يوليو- فكانت بسبب روايته «ثرثرة فوق النيل». فبعد نشرها ثار المشير عبدالحكيم عامر. «وبلغني أنه هدَّد وتوعَّد بإنزال العقاب بي بسبب النقد العنيف الذي ضمنته الرواية، حول سلبيات قائمة في المجتمع. وسمعه البعض يقول: نجيب زوَّدها قوي ويجب تأديبه ووقفه عند حدّه». وتدور الأيام ويحضر ثروت عكاشة ليهنىء نجيب محفوظ بفوزه بجائزة نوبل، فيحكي له عكاشة تفاصيل ما دار في كواليس السلطة عن أزمة رواية «ثرثرة فوق النيل». فقد كان عكاشة وقتذاك وزيراً للثقافة. وبينما كان يستعد لرحلة عمل في إيطاليا، استدعاه الرئيس عبدالناصر وسأله عما إذا كان قد قرأ رواية محفوظ. ولما لم يكن قد قرأها طلب منه عبدالناصر أن يقرأها وأن يبدي رأيه فيها بعد العودة. ولكنه في أول لقاء له مع عبدالناصر، دافع عن الرواية وفنَّد اتهامات المهاجمين لها وأكد للرئيس أن محفوظ ينبِّه إلى أخطاء موجودة ولكن ليس لديه سوء نية في مهاجمة نظام الحكم!

على أن كل تلك المتاعب لا تذكر بجانب تلك التي حدثت بعد ما سمِّي بالنكسة. فقد رفض محمد حسنين هيكل نشر رواية «المرايا»، فنشرها رجاء النقَّاش في مجلة الإذاعة والتلفزيون. ورفض أحمد بهاء الدين عندما كان رئيساً لتحرير «الأهرام» نشر روايته «الحب تحت المطر» فنشرها رجاء النقَّاش أيضاً في مجلة «الشباب»، بعد أن حذفت منها الرقابة أشياء كثيرة. أما روايته «الكرنك» فقد كانت أكثر الروايات التي عانى محفوظ في نشرها حيث قدَّمها بدايةً إلى محمد حسنين هيكل الذي بعد أن قرأها ظن أنها هجوم مباشر على عهد جمال عبدالناصر، فحمل أصول الرواية، وذهب إلى مكتب توفيق الحكيم يشكو محفوظ إليه. وقد حكى الحكيم لمحفوظ استنكار هيكل لما جاء في الرواية، وقال له: «يرضيك كده.. خد شوف نجيب باعت لي إيه»!

ومن أطرف ما رواه نجيب محفوظ أنه لم يقابل عبدالناصر سوى مرة واحدة في حياته حيث كلَّمه فيها وجهاً لوجه. جاء



عبدالناصر ليزور مبنى «الأهرام» الجديد. مرَّ على غرفة يجلس فيها أدباء «الأهرام» وكان هيكل برفقته. وعندما جاء دوره ليصافح عبدالناصر، قال له وهو يبتسم: إيه يا نجيب.. بقى لنا زمان ما قريناش لك حاجة.. فرد عليه هيكل: ستنشر له «الأهرام» قصة غداً.. وأردف: ولكنها من النوع الذي يودِّي في داهية.. فعقَّب عبدالناصر على الجملة الأخيرة موجهاً حديثه إلى هيكل: «يودِّيك إنت».

أما حكاية «أولاد حارتنا» فمعروفة بما فيه الكفاية. وقد روى نجيب محفوظ مرَّة أن الدكتور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس عبدالناصر قال له عندما نشرت

الرواية مسلسلة في «الأهرام» إن من غير الممكن إصدار الرواية في كتاب في مصر بعد ذلك نظراً لاحتجاج الأزهر عليها. ولكنه وعده بترتيب لقاء لمحفوظ مع شيوخ الأزهر لمناقشة الرواية. وقد اتفق معه على أن يحضر إلى مكتبه في يوم محدد، يحضر فيه أيضاً شيوخ الأزهر، يومها حضر نجيب ولكن علماء الأزهر لم يحضروا. وظل نجيب محفوظ يردد إلى أن مات، أنه ما زال بانتظار هذه المقابلة منذ حوالي النصف قرن!

ظل ابن الجمالية البسيط.. يبتسم من قلبه ويحب الجميع ويهرب من الأضواء

وقد لا يعلم كثيرون أن نجيب محفوظ كان رجل نكتة ومقالب درجة أولى كما يقولون، أي بعكس الصورة التي تظهره رجلاً بالغ التقليدية. وقد ذكر مرَّة أنه عقب سقوط الملكية في مصر، وقيام الثورة، كان يلتقي توفيق الحكيم يومياً في ركن خاص به في مقهى بترو بالإسكندرية، وهو مقهى يؤمه الباشاوات والإقطاعيون من المهتمين بالأدب والثقافة. كان من هؤلاء شمس الدين باشا عبدالغفار وبرهان باشا نور. وعندما انضم نجيب محفوظ إليهم شعر بتحفظهم نحوه وخوفهم من وجوده. ولاحظ الحكيم ذلك فحاول إزالة هذه التحفظات والمخاوف ونجح في ذلك. ويقول نجيب محفوظ: بعد قيام الثورة استمرت لقاءات «شلة الحكيم» وأصبح روَّادها من الباشاوات السابقين. كنت أستغل تحفظهم في أحاديث السياسة لأداعبهم وأسخر منهم. أتحدَّث مثلاً عن أحد الأفلام السينمائية المعروضة، وأستخلص منه مغزىً سياسياً خطيراً، وأشير إلى اتفاق شمس الدين باشا معي في الرأي الذي توصلت إليه. فيقفز شمس باشا من مقعده وهو في حالة من الهلع مؤكداً أنه لا رأي له في شيء. وكان الإقطاعيون والباشاوات القدامى في تلك الأيام يعيشون في حالة خوف وذعر بعد قيام الثورة خشية الاعتقال والمطاردة.

اهتمامه بالموسيقى والغناء

كما كانت لمحفوظ عناية خاصة بالغناء والطرب، وحديثه حولهما كان مليئاً بالكلمات المعبِّرة. فقد قال مرَّة إن شخصية الشيخ زكريا أحمد الذي عرفه عن قرب، كانت شخصية طريفة. «فكثيراً ما كنَّا نفاجأ به وهو يسرد الحكاية مندمجاً ومنفعلاً وفي منتهى التركيز، فإذا به يترك حكايته من دون مقدمات ويمسك عوده ويغنِّي. وقد يترك العود ويعود لحكايته من النقطة التي توقف عندها!».

وله رأي خاص بصوت أسمهان وشقيقها فريد الأطرش: « كانت هناك أسمهان بصوتها القوي المعبِّر الذي لا تستطيع أن تجد فيه عيباً واحداً. ومع ذلك لم أتعاطف مع هذا الصوت. بالضبط كما تلتقي بشخص جميل ولا تميل نفسك إليه رغم جماله. وكان إحساسي بصوت شقيقها فريد الأطرش هو نفس الإحساس. فهو يمثل نوعاً من الجمال لا تميل إليه نفسي. هذا على الرغم من إعجابي بالغناء الجبلي الشامي، خاصةً أصوات صباح فخري ووديع الصافي ومن قبلهما فيروز. صوت فيروز يسحرني ويترك في نفسي تأثيراً عميقاً».

وقد أدرك المطربة منيرة المهدية قبل زوال عصرها. فعندما سمعها مرة في آخر حفلاتها بالغناء العلني، قال إنه بان عليها التأثر بتقدم العمر فكانت تغنِّي قليلاً وتسعل كثيراً إلى أن أتمت الحفل، وأعلنت بعده اعتزالها الغناء.

نصف عمري في المقاهي

وإذا كان نجيب محفوظ قد قضى نصف عمره في مصر الملكيَة ونصفه الآخر في مصر الجمهورية، فقد قضى أكثر من عمره بالكامل في المقاهي. فقد ظل يتردد لأكثر من عشرين سنة على مقهى «عرابي» في حي الجمالية.

وظل أكثر من سنوات عشر يتردد على «كازينو الأوبرا». وظل سنوات عشر أخرى يتردد على مقهى «ريش». ولا أدري كم سنة ظل يتردد على مقهى «علي بابا» في ميدان التحرير، وكم سنة تردد على «كازينو قصر النيل» الواقع بين ميدان التحرير وشيراتون القاهرة، وهما المقهيان اللذان التقيت معه فيهما لمدة لا تقل عن خمس عشرة سنة.

وقد ارتبط اسمه بمجموعة «الحرافيش». والكلمة تعني أبناء الشعب، كما هي كلمة شعبية. وكان الحرافيش

ابن القاهرة الذي رسم مدينته بأدبه



Magnum Photos

أصدقاء محفوظ، كما كان هو نفسه واحداً منهم. وقد عُرف دائماً بوفائه لأصدقائه، وللناس جميعاً، وللأمكنة التي كان يرتادها، ويرتاح إليها. وقد ظل على الدوام «ابن الجماليَة» البسيط الذي يعمل بلا ملل، ويبتسم من قلبه، ويحب الجميع ويهرب من الأضواء والضوضاء، كما يقول رجاء النقاش.

إذا كان لكل أمة راويها العبقري، فنجيب محفوظ هو الراوي لمصر وللعرب جميعاً

نصير الفصحى الذي لا يلين

وكما قدَّم روايات خالدة، قدَّم مواقف مشرفة. فمنذ بدأ الكتابة سنة 1928م وعلى مدى سبعين عاماً، اختار أن تكون كتاباته بالعربية الفصحى، وظل متمسكاً بهذا الموقف حتى النفس الأخير. ولم يستجب للدعوات الكثيرة التي كانت تطالبه بأن يكتب حوار رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته باللهجة العامية المصرية.

وكان من هؤلاء الذين انتقدوا إصراره على الفصحى أحد مترجمي أعماله إلى الإنجليزية، وهو المستشرق ديزموند ستيوارت الذي علَّق على موقفه من العامية بقول يعكس الغيظ والغضب: «إن التزام نجيب محفوظ للفصحى في كتابة الحوار مخل بمطلب الواقعية، وهو عند نجيب محفوظ نوع من العناد الطارىء، لا يؤدي وظيفة فنية صحيحة».

وقد دافع محفوظ مراراً عن هذا الموقف، أي عن اختياره للعربية الفصحى في أعماله الأدبية المختلفة. فذكر «أن اللغة العامية من جملة الأمراض التي يعاني منها الشعب والتي سيتخلص منها حتماً عندما يرتقي. وأنا أعتبر العامية من عيوب مجتمعنا مثل الجهل والفقر والمرض تماماً. والعامية مرض أساسه عدم الدراسة. والذي وسَّع الهوة بين العامية والفصحى عندنا هو عدم انتشار التعليم في البلاد العربية. ويوم ينتشر التعليم سيزول هذا الفارق، أو سيقل كثيراً. ألم تر تأثير انتشار الراديو في لغة الناس، حيث بدأوا يتعلمون الفصحى ويفهمونها ويستسيغونها؟ أنا أحب أن ترتقي العامية، وأن تتطور الفصحى لتتقارب اللغتان. وهذه هي مهمَّة الأدب.

ومن أطرف ما ذكره مرة على هذا الصعيد أن انقسام اللاتينية إلى لغات متعددة هو كارثة حلَّت بأوروبا. ولولا ذلك لكانت أوروبا كلها الآن تتكلم لغة واحدة، وهو أمر أفضل لأوروبا وللعالم. وإذا كان ما حل باللاتينية هو كارثة على أوروبا، فلماذا نريد أن نقلِّد هذه الكارثة ونكررها بالنسبة للغة العربية؟

أدب الحياة المنفتح على تغيراتها

ويرى رجاء النقَّاش أن النجاح الكبير الذي حققه نجيب محفوظ بحصوله على جائزة نوبل لا بد أن يكون وراءه مجموعة من المبادىء الأخلاقية. فأدبه هو أدب النفس المفتوحة على الحياة، وليس أدب التراث المنغلق على نفسه. لذلك جاء أدبه تعبيراً عن الناس وهمومهم بحيث يجد فيه الكثيرون أنفسهم، ويحسُّون أنهم موجودون في هذا الأدب وليسوا غرباء عنه. وهذا الاندماج أتاح لنجيب محفوظ أن ينمي في شخصيته تلك الحاسة النادرة وهي حاسة الإدراك السريع لإيقاع العصر، وما يحدث فيه من تغيرات وتطورات. وهذه الحاسة هي التي أتاحت له أن يقوم بعملية تطوير مستمر لأدبه، فلا يتجمد عند مدرسة واحدة، ولا يتوقف عند شكل فني ثابت. وخلال حياته الطويلة تعرَّضت الأشكال الفنية كما تعرَّضت الأفكار، لتطورات أساسية، كما تعرَّض المجتمع المصري والعربي لهزات وأحداث كثيرة حادة. ولو أنه لم يكن يتمتع بهذه القدرة العالية على الإنصات الدقيق للتغيرات الفنية والاجتماعية والإنسانية، لتجمد أدبه عند مرحلة معينة، ومدرسة واحدة، وهو ما تعرَّض له الكثيرون من أبناء جيله الذين لم يستطيعوا استيعاب المتغيرات المتلاحقة، فتجمَّد أدبهم عند الأشكال والأفكار التي عرفوها في المرحلة الأولى من حياتهم. أما نجيب محفوظ فيكاد المرء يحسبه مجموعة من الأدباء وليس أديباً واحداً لأن هناك أربع مراحل على الأقل في أدبه. فقد بدأ بالقصة التاريخية، ثم انتقل إلى الرواية الواقعية، ثم انتقل إلى مرحلة الرمز والتكثيف الشديد في الأحداث والشخصيات. ووصل أخيراً إلى مرحلة امتزجت فيها الرواية بالشعر حتى لتكاد رواياته وقصصه الأخيرة تكون قصائد صافية مليئة بالموسيقى والإحساس الوجداني الغنائي بالناس والأشياء.

وما أذكره جيداً أن نجيب محفوظ حدثني مرة عن الشعر حديثاً ممتلئاً بالحب والتقدير. فقد قال لي إنه يتصور أن الشعر هو أساس الفنون كلها، بما فيها الرواية. وعندما كنت أحدق في وجهه مستغرباً صدور مثل هذا الحكم عن سيِّد من سادات الرواية في العالم، تابع قائلاً: ما هي الرواية؟ أليس أساسها هو التخييل والتصوير؟ أليس هذا الأساس هو أساس الشعر نفسه؟

كان نجيب محفوظ شاهداً على مصر القديمة، كما كان شاهداً على مصر أخرى. وقد كتب بحب، كما بصدق عنها، وكان بذلك أديباً كبيراً، وقمة من قمم النص والرواية في العالم الحديث. وإذا كان لكل أمة راويها العبقري، فنجيب محفوظ هو هذا الراوي العبقري لمصر وللعرب جميعاً، تماماً كشكسبير للإنجليز، ودوستويفسكي بالنسبة للروس، وفكتور هيغو ومارسيل بروست بالنسبة للفرنسيين.

قول آخر

بذل الحقوق بدل حفظها

محمد سعيد أحجيوج*

كنت أتساءل وأنا طفل، ما الفائدة من العبارة: «كل الحقوق محفوظة؟» ما فهمته آنذاك هو أنها تعني بأن كل الحقوق، من تأليف ونشر وتوزيع، محفوظة لصاحب المصنِّف، سواء العلمي أو الفني أو الأدبي. غير أن الواقع ينفي ذلك، فليست كل الحقوق محفوظة. إذ يمكنك أن تجد على أرصفة الشوارع نسخاً من كل شيء، تشارك الأصل في الاحتفاظ باسم المؤلف، وتختلف عنه في الجودة والسعر.

لو أردنا أن نحدد، بشيء من البساطة، أسباب ما يتعرض له «الإبداع» من قرصنة، لوجدناها تنحصر في سببين: الأول ارتفاع سعر بيع المصنف الأصلي، والثاني صعوبة نشره وتوزيعه في جميع الدول.

فارتفاع سعر البيع يدفع الراغبين في امتلاك المصنَّف إلى البحث عن نسخة غير أصلية (سواء نسخة كربونية أو نسخة مقلدة تبدو كأنها الأصل)، تباع في الغالب بسعر زهيد جداً. والأمر نفسه يحصل في حالة غياب ذاك المصنف في بلد ما (بسبب الرقابة، أو بسبب سوء التوزيع)، إذ يضطر طالب المصنف إلى الاكتفاء بنسخة عن الأصل.

نرى إذن أن عبارة «كل الحقوق محفوظة» لا محل لها من الإعراب! فحقَي النشر والتوزيع، وهما الضامنين للعائد المادي من وراء المصنف، قد قُرصِنا. ولم يبق هناك سوى الحق المعنوي، الذي لا يوفر للمبدع أي دخل مادي يكفل له حياة كريمة. إذن، ألم يحن الوقت لنتخلص من تلك العبارة ونستبدلها بمفهوم: «بذل الحقوق؟».

بذل الحقوق يعني تنازل المؤلف عن بعض (أو كل) حقوق ملكيته لمصنف إبداعي ما، مثل حقوق الطبع والتوزيع. حيث سيصير آنذاك بإمكان أي شخص، أو مؤسسة، طباعة وتوزيع ذاك المصنف. شرط أن يكون سعر البيع معقولاً جداً ويقارب سعر التكلفة.. في هذه الحالة سيصل المصنف إلى فئات عريضة من القرَّاء، بجودة وسعر مناسبين جداً.

فقط سيبقى السؤال: أين العائد المادي لصاحب المصنف؟

سيكون هناك ثلاث إمكانيات:

- تبرع القرَّاء والمؤسسات الناشرة للمؤلف: القرَّاء سيشترون الكتاب بسعر زهيد، فلو راقهم سيكون بمقدورهم إرسال تبرعات، ولو صغيرة جداً، للمؤلف. كذلك المؤسسات الناشرة، لو أن الكتاب حقق بعض النجاح فهي ستحقق شيئاً من الأرباح من استثمار لم تتجاوز تكلفته الصفر إلا بقليل. وهي لذلك ستكون مدينة للمؤلف ببعض التبرعات. طبعاً هذه مسألة أخلاقية بالأساس، ما زلنا نحن العرب بعيدين عنها، رغم أننا الأحق بها.
- تخصيص منح للتفرغ (من وزارة الثقافة أو الجامعات أو حتى المؤسسات الخاصة، حسب طبيعة المصنَّف). ولا بد من وجود شروط صارمة (ومرنة في ذات الوقت) حتى يتم تخصيص هذه المنح لمن يستحق فعلاً من أصحاب المواهب، وليس لذوي أنصاف المواهب.
- تخصيص جوائز دورية (أدبية، علمية، فنية) تحقق شيئاً من الحركية الإبداعية. هذه الجوائز ستشرف عليها وترعاها المؤسسات الخاصة، الجامعات، الصحف والمجلات.

بوجود هذه الاحتمالات الثلاثة، مع تفاوت أهميتها حسب كل حالة، فإن أي مبدع حقيقي سوف يحصل على حقه كاملاً غير منقوص، بعيداً عن سلطة دور النشر والمنتجين.

هذا عن حقوق الطبع والتوزيع، لكن يبقى هناك حق آخر يمكن للمؤلف التنازل عنه، وهو حق الملكية الفكرية. فعند قيام مبدع آخر بالتعديل والتحوير والإضافة على مصنف ما، فإنه سيعتبر لصاً ومقلداً، مهما تكن درجة الإبداع التي أضافها هذا الأخير على المصنف الأصلي.

بتنازل المؤلف عن هذا الحق، فإنه يسمح للآخرين بحق اشتقاق أعمال إبداعية أخرى من عمله هو، مع اشتراط الإشارة دوماً إلى المصدر الاشتقاقي في كل مرة. البعض قد يرى أن هذا سيخلق نوعاً من الفوضى، لكن الواقع سيكون غير ذلك، فهذا سيخلق لنا حركية إبداعية لا مثيل لها، خاصة مع استغلال الإنترنت باعتبارها وسيط نشر لا يكلف شيئاً تقريباً. والعائد المادي للمؤلف سيبقى دائماً مضموناً بقدر الإبداع الذي يحمله عمله.

* كاتب من المغرب

الملف

ناطحات السحاب



Getty images

إنها سمة المدينة المعاصرة وملخص صورتها.
تثير في الأذهان صوراً وانطباعات عديدة قلّما اجتمعت بمثل هذا التنوع أمام أي إنجاز إنساني آخر.

فهي تارة صورة الحداثة في صيغتها المعمارية، وتارة تبدو وكأنها تتحدى القدرة على تجاوزها. وهناك من يرى أنها صورة الرأسمالية المنتصرة ومن يرى أنها صورة من صور النجاح في عالم الأعمال، وربما لا تحرك في آخر سوى الحنين إلى فن العمارة القديم..

وبقدر ما تتلون صورها والانطباعات عنها، تتعدد الأسئلة حول حتميتها وإنسانيتها وقيمتها الفنية.. حتى أن أكثر الأسئلة بدائية حولها وهو «لماذا؟» لا يزال موضع نقاش.

ويبدو أن العالم سلَّم بطبيعية ارتفاع ناطحات السحاب في المدينة المعاصرة. وصار التطلع الناقد إلى كل واحدة منها ينطلق من دفتر شروط خاص بها وبتصميمها وبيئتها.

في هذا الملف، يأخذنا **فريق القافلة** في جولة على عالم ناطحات السحاب تشمل محطاتها الهندسية وتاريخها وعلاقتها بالسينما والبيئة والنقد وكل التحديات التي واجهها الإنسان ولا يزال يواجهها وهو يتطلع إلى نطح السحاب.



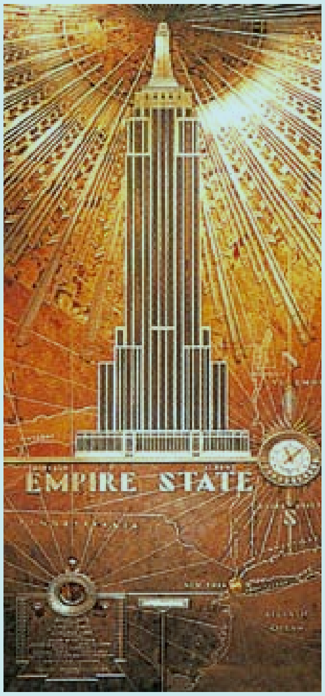
نيويورك.. مدينة ناطحات السحاب

هل صحيح أن كل هذا الاندفاع إلى فوق، وهذه الرغبة في «نطح السحاب» تقف عند حدود الحاجة العملية للاستفادة القصوى من مساحة أرض محدودة، في توفير أكبر قدر ممكن من المساحة المكتبية أو السكنية؟ أم أن هناك لدى الإنسان توقاً إلى الأعلى، ويفتعل المستحيل للنيل من هذا العلو؟!

في مقدمة فيلم «أوديسة الفضاء» محاولة للإجابة عن هذا التساؤل، تمثلت في حركة يقوم بها إنسان بدائي، يقذف بقطعة عظم إلى الأعلى بأقصى ما يستطيع من قوة، فإذا بها تعلو وتعلو وتعلو، وتتحول إلى مركبة فضاء تخيلها الفيلم ستتحقق في مستقبل بعيد.. عام 2002م!

كل الحضارات القديمة سعت إلى نطح السحاب. وتراوحت دوافعها ما بين تمجيد السلطة (أهرام مصر) أو الدفاع عنها (أبراج القلاع العسكرية) أو إضفاء أبهة شكلية على المدينة ككل من خلال بناء يستمد قيمته الأولى -والأخيرة- من شموخه، مثل برج بيزا في إيطاليا أو برج إيفل في باريس. إلا أن التحولات التي طرأت على كافة أوجه الحياة بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر (ومن ضمنها انخفاض تكلفة البناء عالياً وخاصة بالأرواح) سمحت بظهور ناطحات السحاب الحديثة التي باتت سمة المدينة المعاصرة بلا منازع. فلا مدينة تستطيع أن تدعي اليوم الانتماء إلى الحياة المعاصرة وأن تؤكد الحضور الفاعل فيها، من دون أن تكون فيها ولو ناطحة سحاب واحدة تتباهى بها. فواجهة المدينة صفٌ مرصوص من الأبنية الشامخة تتباهى الأحدث منها بالارتفاع عن سابقاتها، وبالتفوق عليها في فن العمارة، ناسبةً إلى أصحابها عزاً ونجاحاً، وكأنها بذلك تقول: «أنا الشركة الفلانية.. فمن مثلي؟».

وليست ناطحة السحاب حاضر المدينة الحديثة أو مستقبلها فقط، بل هي في الحقيقة أصبحت تاريخها وتراثها. وأي زائر لنيويورك مدينة المدن الحديثة، يشعر حين تطأ أقدامه مدخل إحدى ناطحات سحابها الأولى مثل الإمبايرستيت المشهورة، أنه إنما يدخل إلى أحد أهرامات العصر الحديث أو قلاعه أو معابده القديمة. هذه هي الحداثة وقد أصبحت تاريخاً وتراثاً معمارياً فيه ذاك العبق وعلى جدرانه، مثلما على جدران آثار العصور الأخرى، بصمات الزمن وتراكمات السنين.



ملصق دعائي لناطحة السحاب «إمبايرستيت»

من الأرض.. إلى السماء

تدرج مصطلح « ناطحات السحاب» في اللغة الدارجة عند الأمريكيين من وصف يستخدم لتسمية طير يطير على ارتفاع عالٍ عام 1840م، إلى القبعة الطويلة عام 1847م، إلى الكرة الطائرة عالياً في لعبة البيسبول عام 1866م. ولم يخطر ببال أولئك الذين استخدموا هذا الوصف لطير أو قبعة أو كرة، أن كاتباً مجهولاً في مجلة «أخبار البناء والعمارة» الأمريكية لسنة 1883م سيختطف الكلمة ويقول: «يجب دائماً أن تحتفظ المباني العامة بشيء ما يميز أعلاها عن تلك المباني التي تجاورها... ناطحة السحاب هذه ستعطي انطباعاً بالاستقلالية والرضا الذاتي والتحدي والجرأة والقدرة على الوصول إلى السماء. مبنى الكونغرس يجب أن تكون له قبة، ولو أتيحت لي الفرصة، لبنيت ناطحة سحاب هائلة، ولكني أثق في مهارة البنَّاءين والمهندسين الأمريكيين ليبنوا ناطحة سحاب قوية تقاوم أية عاصفة هوجاء». ومنذ ذلك الحين، أصبح تعبير «ناطحة السحاب» ورثياً أو رديفاً للاسم القديم «البرج».

ولم يمض عامان على حديث الكاتب، حتى بنيت في شيكاغو أول ناطحة سحاب في العصر الحديث، على يد المهندس وليام لي بارون جيني، وكانت بناءً تجارياً لإحدى شركات التأمين، ولم يتجاوز عدد طوابقها العشرة، ورغم أن بناءً بعشرة طوابق قد يغرق بسهولة في زحام أية مدينة حديثة من مدن القرن الحادي والعشرين، إلا أنه كان وقتذاك اختراقاً لأساليب البناء القديمة التي راوحت عند بناء مبنى لا يتعدى ستة طوابق.

تزايُد نمو التجارة المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية في نهايات القرن التاسع عشر، خاصة في مدينتي شيكاغو ومانهاتن، دفع بعجلة التفكير إلى البحث عن أساليب جديدة في البناء تعتمد على استغلال مساحة الأرض الضيقة لبناء يعلو عمودياً في السماء، من دون أن يمتد أفقياً على الأرض. ولكن العقبات التي واجهت المهندسين أمام طموحهم كانت كثيرة، ومن أهمها عدم وجود المواد الخام التي تقاوم الجاذبية الأرضية.

في موقع «كيف تعمل الأشياء» على الإنترنت، يشرح الكاتب هذه العقبة، فيطلب منك تخيل أنك تريد حمل صديق لك على كتفيك، فإذا كان هذا الصديق خفيف الوزن، فستبدو هذه العملية ممكنة. ولكن ماذا لو أن شخصاً آخر طلب أن يصعد ليحمله صديقك على كتفيه؟ ثقل الوزن الملقى على كتفيك سيكون أكبر، وربما لن تستطيع حمله


Getty images
من بواكير ناطحات السحاب في شيكاغو

"الفولاذ الذي جعل الأمر ممكناً"

لوحدك. ماذا لو أردت إقامة برج مرتفع من الناس؟ بالتأكيد ستحتاج إلى عدد أكبر من الأشخاص كقاعدة لدعم الأشخاص الموجودين في الطبقات العليا من البرج.

هذه هي طريقة بناء ناطحات السحاب، حيث يتوجب توافر أساسات أكثر في الأسفل؛ وذلك لدعم المواد المركبة في المنطقة العلوية، وفي كل مرة نريد فيها إضافة دور إضافي، يزيد الضغط على مجمل القوة الواقعة في الأسفل، وإذا ما استمرينا في زيادة قاعدة ناطحة السحاب ستنتفي الحاجة إلى بنائها من الأساس كون القاعدة السفلية تتطلب مساحة واسعة من الأرض أتى بناء ناطحة السحاب ليلغي الحاجة إليها. أما إذا أردنا أن نزيد سماكة الجدران السفلية لبناء طوابق علوية جديدة، فلن يكون ذلك عملياً لأن سماكة هذه الجدران ستحتل المساحات الموجودة في الطوابق السفلية.

إذن، ما الذي مكَّن مهندسي القرن التاسع عشر من بناء ناطحات سحاب تجاوزت العشرة طوابق إلى عشرين طابقاً؟ التقدم الأساس كان في تطور إنتاج الحديد والفولاذ البسميري (نسبةً إلى المهندس هنري بسمير)، وذلك من خلال إنتاج القضبان الحديدية الصلبة التي منحت المهندسين مجموعة كاملة من البلوكات الإنشائية والقضبان الجديدة ذات الوزن الخفيف التي تستطيع أن تدعم وزناً أكبر بكثير من ذلك الذي تدعمه الجدران القرميدية الصلبة التي كانت مستخدمة في عمليات إنشاء المباني القديمة، كما أن هذه القضبان كانت قادرة على تقليص الحاجة إلى مساحة أكبر خلال إضافة أدوار جديدة إلى بناء ناطحات السحاب.

ومن خلال الجديد في صناعة الفولاذ، أدخل المهندسون تقنية الهياكل الفولاذية لتدعيم ناطحات السحاب بالكامل، فالقضبان المعدنية تعمل على تثبيت المبنى من كلا الجانبين، ثم يتم وصل القضبان العمودية بقضبان أفقية في كل طابق من المبنى، وفي العديد من المباني تتواجد القضبان القطرية داخل عوارض المبنى للحصول على قدرة تدعيم إنشائية أكبر، وعن طريق هذه الشبكة ثلاثية الأبعاد (القضبان العمودية والأفقية بالإضافة إلى



Getty images

التحدي الأكبر في السعي إلى الأعلى يقع على عاتق من أو ما في الأسفل

رجل من فولاذ السير هنري بسمير

ولد في عام 1813م في إنجلترا، وابتكر تقنية إنتاج الفولاذ بكميات كبيرة وبتكاليف رخيصة نسبياً، وهي التقنية التي مكَّنت المهندسين من بناء ناطحات السحاب. دفع الفقر الأمريكي ويليام كيلي لبيع براءة اختراعه لطريقة إنتاج الفولاذ بتقنية مشابهة لتلك التي كان بسمير يعمل عليها، فانتهز بسمير الفرصة وابتاعها، وبعد دمج الطريقتين، استطاع بسمير عام 1855م إنتاج الفولاذ وحاز براءة اختراع، بالإضافة إلى أنه قد مُنح لقب الفارس تقديراً لمساهمته في التقدم العلمي. وحتى اليوم يصنع الفولاذ تكنولوجياً باعتماد الوسيلة التي قدمها بسمير.

ويليام لي بارن جيني

ولد جيني في عام 1832م، واشتهر بكونه مخططاً للمدن، ومصمماً مبتكراً للعديد من المشروعات الهندسية، ولكن شهرته التي طبقت الآفاق تكمن في بنائه للأبنية التجارية الطويلة، التي عرفت وقتها بناطحات السحاب، رغم أنها لم تتجاوز العشرين طابقاً. وكانت بناية «هوم انشورانس» أولى ناطحات السحاب التي استخدم فيها الهيكل المعدني للدعم، وأصبحت معياراً يقاس عليه في بناء ناطحات السحاب الأمريكية. وتتلمذ على يديه أعظم مهندسي ناطحات السحاب مثل سوليفان ووليام هول بير، وبهذا اعتبر أباً لناطحات السحاب. وتوفي هذا الرائد في العام 1900م، بعد أن أرسى قواعد بناء ناطحات السحاب في علم الهندسة.

تلك القطرية) يتم نقل ثقل المبنى إلى القضبان العمودية، ومن ثم تقوم هذه الأعمدة بنقل الثقل إلى قاعدة البناء التي تقوم بدورها بنشر هذه القوة الضاغطة على التركيبات أو الأساسات الثانوية تحت المبنى والمصممة من الأسمنت.

وتعد الجدران الخارجية الستائرية إحدى أهم الميزات التي يمنحنا إياها الهيكل الفولاذي، وهي تلك التقنية أو الفكرة التي سمحت للمهندسين ببناء ما يريدون باستخدام هذه الجدران الرقيقة مقارنةً بتلك الجدران السميكة الموجودة في المباني التقليدية قديماً.

ولكن حل المشكلات الهندسية المتعلقة بقدرة ناطحة السحاب على أن تحمل نفسها أدى إلى ظهور سلسلة طويلة من التحديات الجانبية التي لم تكن مطروحة في المباني التقليدية، ولعل أبرزها الوصول إلى الأدوار العليا.



Getty images

مصاعد للسفر إلى السحاب



الفولاذ.. العمود الفقري المعاصر لناطحات السحاب الحديثة

بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر، شاع استخدام المصاعد المعتمدة على البخار لنقل المواد في المصانع والمناجم وورش العمل، ولكن هذه المصاعد البخارية لم تكن آمنة لنقل البشر، فإذا انقطع الحبل الذي يحمل أحدها، سقط إلى قاع الأرض مع ما أو من يحمله. في عام 1853م، قدَّم المبتكر الأمريكي إليشا أوتيس نسخة جديدة من المصعد المدني الآمن للبشر، المزوَّد بمكابح تمنع سقوط عربة الركاب في حالة حدوث أي طارئ للحبال التي تنقلها. بعد ذلك بعقود قليلة، سهَّل وجود المصعد المدني عملية بناء المباني الطويلة، أو ناطحات السحاب في وقت لاحق.

ومنذ البدايات الأولى لناطحات السحاب انشغل المهندسون بإجراء الدراسات حول تأمين مصاعد آمنة وسريعة وعملية في الوقت نفسه لقاطني هذه البنايات، فلا يمكن استخدام الدرج أو السلالم نزولاً وصعوداً مع بنايات تعلو لأكثر من أربعين أو خمسين طابقاً، ولا يمكن للعدد الهائل من سكان ناطحة السحاب أو العاملين فيها استخدام مصعد واحد والانتظار في طوابير حتى تتاح لهم فرصة استخدامه. فعمل المهندسون على تطوير تقنيات بناء المصاعد في ناطحات السحاب مع ما يتناسب مع الوقت الذي ينتظره عادةً أغلب الناس لاستخدام المصعد وهو حوالي 28 ثانية. ولحل هذه المشكلة تضم أغلب ناطحات السحاب مجموعتين من المصاعد قد يصل عددها حتى 99 مصعداً. ويتسع المصعد في المجموعة الواحدة لأكثر من خمسة وخمسين شخصاً. أول المجموعتين هي تلك التي تعمل على نقل قاطني الأدوار الأولى، والثانية لنقل المتجهين إلى الأدوار العليا. ولكن المشكلة أن مستخدمي المصاعد يضطرون أحياناً إلى الانتظار فترات طويلة حتى يمكنهم تغيير المصاعد بين المجموعتين، الأمر الذي دفع المهندسين لتخصيص بعض المصاعد للوصول مباشرة من الطابق الأول إلى الطابق الأخير، أو لتخصيص رواق إضافي للانتظار باسم «رواق السماء» في الدور الذي يتم فيه تغيير المصاعد.

أشهر ناطحات العصر الحديث

إمبايرستيت نيويورك

منذ بنائها في عام 1931م، وحتى أربعين سنة بعدها، ظلت ناطحة السحاب الإمبايرستيت أطول ناطحات السحاب في العالم، ليتجاوزها مركز التجارة العالمي في السباق، ثم بفترة قصيرة برج سيرز في شيكاغو. وقد ضمت الجمعية الأمريكية للهندسة المدنية هذا المبنى ضمن عجائب الدنيا «الحديثة» السبع.

صممت هذا المبنى «شركة شريف ولامب وهارمون»، وعمل في بنائه 3400 عامل، توفي منهم 14 أثناء العمل. وصادف الانتهاء من بنائه دخول أمريكا في عصر الكساد الاقتصادي في ثلاثينيات القرن الماضي، وأطلق عليه العامة وقتذاك اسم «البناء الخالي» أو (Empty State Building) في إشارة إلى مكاتبه الخالية التي لم تؤجر حتى أربعينيات القرن الماضي نتيجة للأحوال المالية المتردية في نيويورك. وبتدمير برج التجارة العالمي في عام 2001م، عادت الإمبايرستيت لتصبح أعلى ناطحة سحاب في نيويورك.

بتروناس كوالالمبور

يتألف برجي بتروناس في العاصمة الماليزية كوالالمبور من 88 طابقاً، وكان إلى وقت قريب (2003م) أطول أبراج العالم. وصمم بتروناس المهندس الأرجنتيني سيزر بيلي، وانتهى البناء فيه في عام 1998م، واعتمدت الزخرفة الإسلامية في التصميم الخارجي للبرجين لتعكس الروح الإسلامية التي تنتمي إليها ماليزيا. كلفت شركتان ببناء البرجين كلٌ منهما على حدة على غير العادة، بل وأقامت الجهة المسؤولة عن بناء الأبراج، وهي الشركة التي سمي البرجان باسمها، مسابقة بين الشركتين، أيهما ينهي برجه أولاً، وفي النهاية فازت الشركة التي كلفت ببناء البرج الثاني بالرغم من أنها قد بدأت بعد تلك التي بنت البرج الأول بشهر. وبعد انتهائه، واجه البرج الفائز مشكلات عديدة حينما تبين بعد انتهاء بنائه انحرافه بخمسة وعشرين مليمتراً عن الزاوية العمودية.



Getty images

مونبارناس باريس

بنيت ناطحة سحاب مونبارناس في العام 1972م، وهي حتى الآن، بثمانية وخمسين طابقاً، أطول بناية مأهولة في باريس، وتحتل غالبية طوابقها المكاتب التجارية، عدا طابقين خصصا للزوار ليطلوا على باريس.

منذ بنائها، ومونبارناس تواجه نقداً لاذعاً بسبب تصميمها البسيط الخالي من الجمال، واعتبره النقاد تشويهاً لسماء باريس بدلاً من أن يكون إضافةً لها. ونتيجة لذلك النقد صدر قانون بمنع بناء ناطحات السحاب في باريس بعد سنتين من اكتمال مونبارناس.. ويقول سكان باريس مازحين إن الميزة الوحيدة التي تتوافر للعاملين في مكاتب مونبارناس، هي أن هذه البناية هي المكان الوحيد في باريس الذي لا تستطيع أن ترى من نوافذه.. مونبارناس!

تايبيه ١٠١ تايبيه

في 17 أكتوبر من العام 2003م، حاز «تايبيه 101» لقب أطول بناية في العالم. بُني تايبيه في العاصمة التايوانية التي سمي باسمها، ويتضمن 101 طابق بالإضافة إلى خمسة طوابق تحت الأرض. يعتبر تايبيه من نواح عدة أكثر ناطحات السحاب تكنولوجيةً حتى اليوم، فالمبنى يوفر اتصالاً بالإنترنت تبلغ سرعته واحد جيجابايت في الثانية. أما مصاعده فتستطيع أن تنقل الزوار من الطابق الأول حتى الطابق التاسع والثمانين في أقل من تسع وثلاثين ثانية. التصميم الخارجي للمبنى مفعم برمزية النجاح المادي. والطبقات التي تتوالى بعضاً فوق بعض وتعطي الانطباع لدى الكثيرين بأنها سلات من الخيزران، هي في الحقيقة تمثيل لقوالب من الذهب كانت العائلة المالكة في الصين القديمة تستخدمها كعملة. المبنى يحتوي على تمثيل لثمانية من هذه القوالب، كل قالب منها يضم ثمانية طوابق، وكلمة ثمانية في اللغة الصينية شبيهة في نطقها بعبارة «اكسب ثروة»، أما الدوائر الأربع الموجودة على جوانب المبنى قريباً من قاعدته، فتمثل قروشاً دائرية.



Getty images

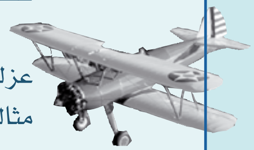
أرقام ومراتب

تتفوق هونج كونج على جميع مدن العالم باحتوائها على أكثر ناطحات السحاب، فعددها 7417 بناية، تليها نيويورك بأكثر من أربعة آلاف وأربعمائة ناطحة سحاب تقريباً، ثم سنغافورة بأكثر من 2500، ثم ساوباولو في البرازيل بألفين وخمسمائة ناطحة سحاب، بينما حازت سيول المرتبة الخامسة بأكثر من ألفي ناطحة سحاب.



سينما ناطحات السحاب

ناطحات السحاب من الملامح المميزة في صناعة الأفلام، فهي تقول الكثير، من دون أن تتكلم على الإطلاق. في الأفلام القديمة والمسلسلات التلفزيونية الأمريكية، عادةً ما يبدأ الفيلم بتصوير إحدى ناطحات السحاب من الخارج، بينما يصل للمشاهد محادثة تجري في أحد مكاتب البناية بين أشخاص غالباً ما يكون أحدهم رجل أعمال مشهور، أو رئيس عصابة كبرى.



عزلة ناطحات السحاب، ونظامها الأمني المشدد أيضاً يجعلها مكاناً مثالياً لأحداث دراماتيكية كاختطاف الرهائن أو اندلاع الحرائق، وهي من المواضيع المفضلة لأفلام المغامرات والإثارة الأمريكية.. أما في أفلام الكوارث الطبيعية أو الكونية، فناطحات السحاب هي أولى المباني التي يدمرها الفيضان، أو يحتلها الغزاة القادمون من الفضاء.

ومن أهم ناطحات السحاب التي كان لها حضور مؤثر في الأفلام هي الإمبايرستيت في نيويورك، فهو المبنى الذي تتسلقه الغوريلا العملاقة في فيلم «كينغ كونج»، وهو المبنى الذي تدمره سفينة فضائية غازية في فيلم «يوم الاستقلال»، أما سطحه الذي يقصده الزوار، فقد كان له دلالة رومانتيكية في فيلم «الأرق في سياتل».

غير أن أشهر الأفلام السينمائية قاطبة التي كانت ناطحة السحاب موضوعها الأساس هو فيلم «البرج الجهنمي» الذي قام ببطولته ستيف ماكوين وبول نيومان.

يروي هذا الفيلم الذي أنتج في منتصف السبعينيات قصة حريق يندلع في برج من أكثر من أربعين طابقاً، نتيجة عملية غش في التمديدات الكهربائية. فتندلع شرارة صغيرة خلال الاحتفال بتدشينه لتتحول بسرعة إلى حريق عملاق وقاتل بسبب طبيعة الهندسة الداخلية للبناء نفسه حيث المقاييس الضخمة تشكل آلة موت ضخمة أيضاً. وحتى إطفاء الحريق يعتمد على ضخامة خزانات المياه الموجودة على سطحه، فيتم تفجيرها لإغراق البناء من الداخل.. الأمر الذي يؤدي إلى سقوط المزيد من الضحايا. وقد كان هذا الفيلم وقت ظهوره بمثابة جرس إنذار نشر المزيد من التوعية حول خطورة أبسط المعطيات الفنية في هذه المباني العملاقة.



من فيلم «كينغ كونغ»

أعداء ناطحات السحاب

الطبيعة أولاً

أعتى أعداء ناطحات السحاب هي العوامل الطبيعية، من رياح وزلازل. ولذلك يجب على ناطحات السحاب أن تتعامل مع القوة الأفقية للرياح إضافةً لمقاومتها ضغط الجاذبية الأرضية إلى الأسفل. ومعظم هذه المباني صممت للتحرك بضعة أقدام كشجرة تهتز أمام الرياح من دون أن تعرض سلامة المبنى أو ساكنيه للخطر، ولكن المشكلة تكمن في شعور قاطني المبنى بهذه الحركة، وانزعاجهم بسببها خاصة في الأدوار العليا. ورغم ذلك يذكر التاريخ حوادث كان للرياح فيها اليد العليا، مثل حادثة «برج جون هانكوك» في بوسطن، فالبرج المغطى بالزجاج العاكس بأكمله لم يصمد أمام رياح شتوية هبت في يناير عام 1973م بينما كان البرج تحت الإنشاء، فسقطت ألواح ضخمة من الزجاج على الشارع يزن كل لوح منها 55 باونداً، وبحلول أبريل من نفس السنة، كان قد تجاوز عدد الألواح التي لم تصمد أمام الرياح 65 لوحاً زجاجياً استبدلت برقائق من الخشب.

وبتطور هندسة ناطحات السحاب والتقنيات اللازمة لها، تعددت وسائل مواجهة الرياح والزلازل. ومن أكثرها شيوعاً الأنظمة الهيدروليكية داخل المبنى التي تحرك كتلة من الأسمنت يصل وزنها إلى 400 طن لحفظ توازن البناء خلال العواصف الهوائية. كما أن تصميم شكل ناطحة السحاب الذي بات أكثر مرونة مع الفولاذ والزجاج صار يسمح بإعطائها أشكالاً انسيابية تسمح للرياح المصطدمة بها أن تنزلق عليها مخففة بذلك من ضغطها على واجهة البناء. فلكل ناطحة سحاب وسائلها الخاصة في مواجهة العواصف والزلازل استناداً إلى مكان إنشائها ومعطياته الجغرافية.



الرياح.. ألد أعداء ناطحات السحاب



السحاب.. يرد الصاع.. برقاً

وعداء البشر

ومع عداء الطبيعة الذي تتواصل جهود المهندسين للتغلب عليه، يأتي نوع آخر من العداء هو عداء البشر لناطحات السحاب، وهو عداء لوجودها المادي والمعنوي في وقت واحدٍ، وإن اختلفت الدوافع. فلندن التي سارت جنباً إلى جنب مع نيويورك وشيكاغو في إنشاء ناطحات السحاب في أواخر القرن التاسع عشر، توقفت مسيرتها بسرعة نتيجة لاعتراض الملكة فكتوريا على أبنية «شاهقة العلو» تحجب أشعة الشمس وتشوه سماء لندن، كبناء فندق جراند ميدلاند، والذي لم يتجاوز طوله الاثنين والثمانين متراً، واستمرت القوانين التي تحد من بناء ناطحات السحاب في إنجلترا حتى خمسينيات القرن الماضي. أما العاصمة الفرنسية باريس المعتزة بتخطيطها المحدد بشكل شبه نهائي منذ القرن التاسع عشر، وبأبنيتها الحجرية التي يبلغ متوسط ارتفاعها ست طبقات، فلا تحوي حتى اليوم سوى ناطحة سحاب واحدة هي برج مونبارناس.



ولكـن العاصمـة الفرنسيـة التـي وجـدت نفسهـا مضطرة إلـى التعامل مـع موجبـات ناطحـات السحاب، وجـدت الحل فـي تخصيـص إحدى ضواحيهـا الغربية المعروفة باسـم «لاديفاس» (أي الدفاع) حيث أطلقت يـد المهندسين ليبنوا ما شاءوا وبالارتفاعات التي يريدونها. وخلال ثلث قـرن فقـط تحولت تلك المنطقـة إلى غابة من ناطحـات السحاب، ومن أشهرهـا «برج مانهاتن» الذي بني في مطلـع سبعينيات القرن الماضي، وكان أول ناطحة سحاب في فرنسا مغطاة بالزجاج بأكملها.

ويختلف الأمر تماماً في أمريكا. ففي شيكاغو، وجد المهندسون أنفسهم فـي القرن الماضـي محاصرين بقوانيـن تحدد عدد الطوابـق المسموح ببنائهـا بأربعيـن طابقـاً فقـط. ووحدها نيويـورك أفلتت مـن مثل هذه القوانيـن، وإن حاول ويحاول أنصار البيئة فرضها من حينٍ لآخر. وحول كل ناطحـة سحـاب تبنى في إحـدى المدن الأمريكية، تجـد المعارضين الذيـن يحاولـون الحفاظ على سمـاء مدينتهم الصافيـة، أشعة الشمس التي تصل إلى شارعهم أو إلى الشارع المجاور له، وحتى الهوية التاريخية للمكان. ويتجاوب مصممو ناطحات السحاب مع بعض هذه الاعتراضات، فتكتسـي معظم ناطحات السحاب بنوافذ زجاجيـة تعكس أشعة الشمس ولا تحجبهـا، وينصـاع محافظو المـدن لبعضها فيمنعـون بناء ناطحات السحـاب التـي تهدد الهوية التاريخية للأحيـاء القديمة. ولكن رغم هذا وذاك، لـم تستحوذ ناطحات السحاب على الرضا من أنصار البيئة. لأن اعتراضهم هو قائم على البناء ذاته، لا الظروف المحيطة به، إلى أن بنيت ناطحـة السحاب «كومرزبانك» فـي فرانكفورت، وهي أول ناطحة سحاب خضـراء في عـام 1997م، واعتبر هـذا انتصاراً ساحقـاً لأنصار البيئة توالـت بعدهـا انتصاراتهم. ففـي نيويورك مثلاً تصـر سلطات تخطيط المدينـة على أن تتبع ناطحات السحـاب الجديدة المعايير القاسية التي يفرضهـا مجلـس البنـاء الأخضـر، وتؤكـد الدراسـات أن العاملين في ناطحـات السحاب الخضـراء (الذين يتعرضون لأشعـة الشمس والهواء الطبيعـي النقي أثناء عملهم) أقل تعرضـاً للإصابة بالأمراض التي كان العاملـون فـي الأبراج المغلقـة المعتمدة علـى هواء التكييـف معرضين للإصابـة بهـا، خاصة تلـك التي بنيت فـي فترة السبعينيـات من القرن الماضي. تكاليف البنـاء الأخضر لناطحات السحاب أعلى بكثير من تلك التي يتكلفها البنـاء التقليدي، ولكن الشركات تقبل على هذا الخيار نتيجة لعامليـن تضعهما في الاعتبـار: العامل الأول الصـورة الدعائية للشركة بيـن العامة لدى معرفتهم باختيارها لـ «الأخضر» وحفاظها على البيئة، والعامـل الثانـي كون البنـاء الأخضر يوفر 35% مـن استهلاك الطاقة، وبالتالي فهو استثمار للشركة على المدى البعيد.

صورتها بين الوجدان الأدبي وخلافه

أمـا عـن العداء المعنـوي لناطحـات السحاب، فقـد بدأ منـذ إنشائها، فالبعضـ لـم يستطع أن يتقبل التغيرات التـي تضفيها ناطحات السحاب علـى المدينـة، والبعض الآخر خشـي علـى المدينة التـي عرفها طفلاً وشابـاً من أن تتحول مخلوقاً جديداً لا يعرفه وليس له علاقة به. ولذلك،



تسابق هؤلاء ليضعوا ناطحات السحاب ضمن إطار يضمن لهم إحساساً بالاتصال بتاريخهم، ويضفي على البناء القاسي الطويل حساً إنسانياً، ذلك أن الجهد الإنساني الذي تطاول ليصل للسحاب، كان مجموعة من الجهود الفردية التي بذلها العمال. يصف الكاتب الأمريكي دوينج في كتابه « الأبراج» بناء ناطحات السحاب بصعود الصناعة إلى الأعلى على حساب الإنسانية، ويصر على أن كل مواطن يمتلك جزءاً من هذه الأبراج العالية، وذلك لأن الشركات تبني ناطحاتها معتمدة على قروض من البنوك التي يمولها المواطنون! ورغم أن رأيه هذا، بمعايير عصرنا اليوم، ليس مقنعاً، إلا أنه يمثل جهداً حقيقياً بذله الكتاب وقتذاك لاسترجاع القوة المفقودة من المواطن العادي أمام الغابة المتسعة من ناطحات السحاب. أما المؤرخ ماكس بيج فيصف ما تقدمه ناطحات السحاب إلى المدن الأمريكية بأنه «تخريب إبداعي». وربما لم يعد غالبية الكتَّاب ينظرون إلى ناطحات السحاب بالحدة ذاتها، ولكن تبقى ناطحة السحاب في وجدان الكثيرين من الأدباء والكتَّاب، بطرازها العمراني، وبما تمثله من نجاح مادي، بناء من دون قلب، فيه كل ما في المادة من الجمال، وليس فيه كل ما لا تستطيع المادة شراءه من أصالة، وكما يقول الكاتب المصري كامل زهيري: «ناطحات السحاب جميلة؛ لأنها نظيفة قاطعة كحد الموس. تلمع لأنها من الفولاذ الأبيض. زجاجها كالمرآة.. حجارتها تلمع كالزجاج. ولكن ليس لها جذور في الأرض. إنها مجرد كميات هائلة من الحجارة والصفيح والحديد والزجاج، كومت بعضها على بعض».

من جهة أخرى، ومنذ بداية إنشائها، تلعب ناطحات السحاب دوراً رئيساً في الدعاية للاقتصاد، وتعتبر مؤشراً لا يقبل الجدل على النجاح في حقول الأعمال، ففي بداية القرن العشرين، اكتشفت الشركات الكبرى أن تأثير ناطحات السحاب في الدعاية لأعمالها يتجاوز بمراحل أي تأثير ممكن أن تحققه الدعاية عن طريق المنشورات أو الجرائد والمجلات، ونتيجة لهذا النجاح التي حققته ناطحة السحاب كرمز وكسياسة تسويق في عالم الأعمال، سرت عدوى الشغف بها إلى الدوائر الحكومية، مثل مبنى ولاية نبراسكا الذي أنشئ في عام 1932م، ومبنى أمانة الأمم المتحدة الذي بني عام 1950م. ورغم أن الصورة المثالية لناطحات السحاب كبناء لا يقهر اهتزت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أنها سرعان ما استردت عافيتها. وعادةً ما تلجأ الشركات التي ليس لديها منتج ملموس يبتاعه المستهلك، كالبنوك وشركات العقار، إلى ناطحات السحاب للدعاية وللإيحاء بنفوذها وكفاءتها.

فبموازاة الوجدان الأدبي الناقد لناطحات السحاب، هناك وجدان شعبي يتطلع إليها بإعجاب، ربما لما تمثله من ثراء ومن تحدي قدرات الفرد المشاهد على صنع شيء مشابه. وبين هذا وذاك، هناك عوامل وضغوطات لا تأبه للأمزجة فنية كانت أم لا.. فتمضي بالمهندسين والبنَّاءين إلى بناء المزيد من ناطحات السحاب.. ومن ثم المزيد.

Getty images

ناطحة سحاب

في النهار، تنتصب ناطحة السحاب من وسط الدخان وأشعة الشمس، وتكتسب روحاً.
شارعا المدينة: «الغابة والوادي»، يفرغان فيها كتلاً بشرية، ما تلبث أن تتمازج وتختلط في طوابقها العشرين، ثم يعاد قذفها إلى الشوارع: البراري والأودية.
إنهم الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، ينسكبون كل يوم داخل ناطحة السحاب وخارجها، مما يشحن البناء بروح وأحلام وأفكار وذكريات.
(ولو كان البناء غارقاً في لجة بحر، أو مشيداً في الصحراء، فمن كان سيهتم به أو يأتي على ذكر اسمه، أو يسأل شرطياً عن الطريق المفضي إليه؟).
تنزلق المصاعد على حبالها، وتتلقى الأنابيب رسائل وطروداً، وتحمل أنابيب أخرى الماء والغاز إلى الداخل، وتقذف المياه الآسنة للخارج.
تتسلق الأسلاك محملة بالأسرار، حاملة النور والكلمات، مبشرة بالمغانم، منذرة بالويلات والعواطف، ناقلة شتائم الرجال ومشروعات أعمالهم وأسئلة النساء ومكائد غرامياتهن.
ساعة بعد ساعة تلامس صناديق المتفجرات صخور الأرض، وتحمل البناء إلى كوكب دوّار.

ساعة بعد ساعة، تتحول العوارض المعدنية إلى دعامات، تحمل معاً الجدران الحجرية وأرضية الحجرات.
ساعة بعد ساعة، تمتد يد «معلم العمار» وخلاّطي مواد البناء، لتثبت القطع حسب التصميم الذي اختاره المهندس.
ساعة بعد ساعة، يتدافع على البناء الشمس والمطر، الهواء والصدأ، وضغط الزمن الذي يتراكم قروناً، فتفعل فعلها داخل البناء وخارجه، إلى أن تستهلكه.
أما الرجال الذين جبلوا مواد البناء فيساقون إلى القبور، حيث تصفر الريح أغنية وحشية بلا كلمات.
وهذا مصير الرجال الذين مدوا الأسلاك وثبتوا الأنابيب، وشاهدوا البناء يرتفع طابقاً إثر طابق.
أرواحهم جميعاً هنا، حتى صناعة خلط مواد البناء، تتسول أمام الأبواب الخلفية على مسافة مئات الأميال، كما يرقد هنا عامل القرميد الذي كان قد سيق إلى سجن الولاية لقتله رجلاً آخر، وهو ثمل.
(سقط رجل من فوق إحدى الدعامات، ودقّت عنقه على حافة منصة مستقيمة، وهو يرقد هنا أيضاً، وقد امتزجت روحه بحجارة البناء).



وعلى أبواب المكتب، تجد من صف لصف مئات الأسماء، يعود أحدها لوجه طفل ميت، أو عاشق متيم، أو طامح إلى صفقة بمليون دولار، أو غارق في ملذات الحياة السهلة.
وخلف الإشارات التي تحملها الأبواب، تراهم يعملون، لكن الجدران من غرفة لغرفة لا تقول شيئاً.
ويحمل عامل اختزال راتبه الأسبوعي عشرة دولارات، يحمل رسائل من مديري الشركة، ورجال قانون، ومهندسين، وتذهب أطنان من الرسائل من قاطني البناء إلى كل عناوين الأرض.
ابتسامات ودموع كل موظفة تذوب في روح البناء، تماماً كابتسامات ودموع المديرين الذين يحكمون البناء.
وعندما تشير عقارب الساعات إلى الظهيرة يُفرغ كل طابق رجاله ونساءه الذين يتوجهون لتناول الطعام ثم يعودون للعمل.
فإذا اقتربت نهاية فترة الظهر، فإن سرعة كل الأعمال تتباطأ، عندما يشعر الناس أن النهار ينغلق عليهم.
وتبدأ الطوابق بإفراغ من فيها، طابقاً بعد آخر، ويختفي عمال المصاعد ذوو الأزياء الخاصة بمهنتهم، وترسل الدلاء رنينها، وتبدأ أجهزة غسل الغاز عملها، متحدثة بلغات غريبة. وتعمل المكانس والمماسح بتنظيف الأرضيات من الغبار واللعاب الآدمي، وأوساخ الآلات في ذلك النهار.
وتنتشر على الأسقف إشارات إلكترونية ناطقة برغبة أعداد من المنازل بشراء حاجيات مقابل النقود، وتظل الإشارات ناطقة حتى منتصف الليل.
يخيم الظلام على المداخل والأروقة، وتتحول الأصوات إلى صدى، ويسود الصمت.. يبدأ الحراس بالتنقل ببطء بين طابق وآخر، يتفحصون الأبواب، تتدلى المسدسات من الجيوب الخلفية لسراويلهم، بينما تقف الخزنات الحديدية بأمان في الزوايا محشوة بالنقود.
ينحني أحد الحراس على نافذة، فيشاهد أضواء الزوارق التجارية تشق طريقها عبر الميناء، وشبكات من القناديل الحمر والبيض في محطة للسكك الحديدية، وجسراً من الظلمة يتساقط خطوطاً بيضاء وضبابية، ويعبر وينتشر فوق المدينة.
وعندما يخيم الليل، تنتصب ناطحة السحاب وسط الدخان والنجوم بروح نابضة.

كارل ساندبرغ
ترجمة: الياس سحّاب



ناطحات سحاب.. زمن مضى

يتناقل اليمنيون حكايات عن مدينتهم شبام، التي يرجع تاريخ عمران مبانيها القديمة إلى أكثر من خمسمائة سنة. بنيت المدينة على الطراز القديم، إذ يحيط بها سور قديم له بوابة وحيدة، وشوارعها ضيقة ملتوية، وبيوتها مبنية من الطوب اللبن والطين النيئ، وتتراوح طوابقها ما بين 6 و 7 طوابق، وارتفاع كل طابق من 4 إلى 6 أمتار. أما سماكة جدران الدور الأرضي للمنزل في شبام فهي بين متر ونصف ومترين، ولكنها تتناقص صعوداً حتى الحافة العليا للمنزل.

أما الإنجليز، فيحكون عن بناء «الفلاكسميل»، وهو أول بناء مؤطر بالحديد في العالم. بني الفلاكسميل عام 1797م، ويقال إنه الجد الشرعي لناطحات السحاب الحالية، نتيجةً للقضبان العمودية والأفقية المصنوعة من الحديد، والتي طورت في العصر الحالي لتصبح قضباناً من الفولاذ. ويحتاج الفلاكسميل في الوقت الحالي إلى عناية واهتمام عمراني لمنعه من الانهيار. وهذا ما دفع لجنة التراث الإنجليزي إلى الإعلان في شهر مارس من العام 2005م عن عزمها شراءه والحفاظ عليه.



الأبراج العربية
الفيصلية، المملكة، دبي...

«الفيصليــة» و «المملكة» اسمان يعرفهما كل مــن يعرف مدينة الرياض. فناطحتــا السحاب هاتين تحولتا منذ الأيام الأولــى لتدشينهما إلى أبرز المعالــم العمرانيــة في العاصمــة السعوديــة، وأقوى نقــاط الاستقطاب للمقيمين فيها.



برج الفيصلية في الرياض



وبرج المملكة

ولكل من البرجين اللذين يخترقان فضاء المدينة المنبسطة أفقياً، شكل فني مميز، حتى أنك تجد مجسماتهما المصنوعة من الزجاج أو المعدن أو الكريستــال أو علــى شاكلة علاَّقات مفاتيح ومــا شابه، تباع كتذكارات أينما كان في العاصمة وخارجها.

يحتــوي كل بــرج على ثلاثين طابقاً. وفي حيــن أن «الفيصلية» مخصص للمكاتــب، خصَّ «المملكة» بعض أدواره لفنــدق «الفصول الأربعة». ويبلغ ارتفاع الأول 266 متراً، والثاني 300 متر.

أما السؤال الذي يُطرح من خلال ارتفاع هذين البرجين في فضاء العاصمة السعوديــة فهــو حول ما إذا كانــا باكورة سلسلة من ناطحــات السحاب قد تغيّــر مستقبلاً البناء في الرياض ككل، أم أنهما مجرد إضافة إلى فضاء المدينــة كما هو حال «مونبارناســ» في باريس، مجرد تلوينة وحركة تكسر أفقية المدينة، وتضفي عليها شيئاً من الحيوية والمركزية؟

وعلــى الصعيد العربي، ورغم انتشار ناطحات السحاب في معظم المدن والعواصــم، تبقــى صــورة إمارة دبــي الأكثــر التصاقاً بصــور ناطحات السحــاب. ورغــم العدد الكبير من الأبراج في الإمــارة يجري حالياً فيها



عاصمة ناطحات السحاب على الخليج العربي.. دبي

تشييــد «برج دبي» الذي يتوقع أن يتجاوز ارتفاعه 700 متر. وهو المرشح الأول لتجاوز أعلى ناطحات السحاب في العالم حالياً (برج تايبيه 101). ويتوقــع أن ينتهــي البرج في العام 2008م، ويقــال إن الطابق الواحد فيه يشيَّــد خــلال سبعــة أيام فقــط. أما عن ارتفاعــه المحــدد فالمسؤولون يتكتمون حوله خوف المنافسة.







قيل في ناطحات السحاب

«ناطحات السحاب هي العمارة النهائية للرأسمالية، فكل تخطيط مبدئي لأية ناطحة سحاب يتضمن المعادلة بين التكلفة والأرباح».

كارول ويلز – مؤرخ عمراني

«المساهمة الوحيدة التي قدمتها أمريكا للعالم كانت ناطحات السحاب، وموسيقى الجاز، وشراب الكوكتيل».

فيدريك كاسترو

«ناطحات السحاب عبارة عن مديح ذاتي من الزجاج والفولاذ».

ماسون كولي

«أنت لا تتطلع إلى ناطحة السحاب، أنت تتطلع إلى المهندس الذي بناها».

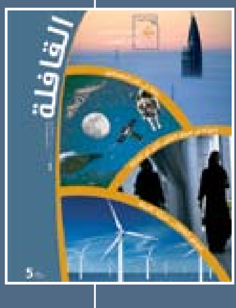
مجهول

«ناطحات السحاب ليست فقط رمزاً لروح أمريكا، ولكنها الشيء الوحيد الذي نستطيع (كأمريكيين) أن ندَّعي أنه بلا جدال ابتكار أمريكي في عالم الهندسة».

كلود براجدون

انتبه.. قد يعلق طرف من حقيبة الطالب أو ملابسه بباب الحافلة أثناء النزول وتحدث كارثة. على السائق أن يتأكد من ابتعاد الطالب عن الحافلة بأمان





القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
سبتمبر - أكتوبر 2006
المجلد 55 العدد 5

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com